
أيام الخوف
«رواية»
د. خليل حسن خليل
مكتبة مدبولي

أيام الخوف

مكتبة مدبولى

العنوان: ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ - **فاكس:** ٥٧٥٢٨٥٤

الكتاب: أيام الخوف - رواية

الكاتب: د. خليل حسن خليل

رقم الإيداع: ١٤٤٢٣ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى: 2 - 293 - 208 - 977

الطبعة الأولى: ٢٠٠٢

لوحة الغلاف بريشة الفنانة: برندا خليل

عربية للطباعة والنشر

العنوان: ٧& ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون: ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس: ٣٢٩١٤٩٧

د. خليل حسن خليل

أيام الخوف

2002

مكتبة مدبولى

(١)

كان صبيا فى السابعة.. لكنه يحس بأنه رجل من الرجال. البيئة التى شب فيها زرعت فيه هذا الشعور. أبوه من ملاك الأرض الصغار. قطعة الأرض التى يملكها تكفل لأسرته عيشة معقولة، جعلته يختال بين أقرانه الذين لايملك ذووهم أرضا! أتاح له هذا الوضع المتميز أن يتصدر أولاد القرية فى اللعب، وفى المدرسة، وفى كل مكان.

هذه المكانة دفعت بالصبى خطوة أخرى، أصبح مغرما بمجالس الرجال. لم تعد تغريه صحبة الأولاد! نادرا مايجتمع بهم.. على أنه يلبى نداءهم اذا ماااحتاجوا إليه كزعيم!!

تسبب أبوه فى اغرائه للانضمام الى الرجال، وابتعاده عن «العيال». الرجل عذب الحديث، أصاب قدرا ضئيلا من التعليم، لكنه أصاب قدرا كبيرا من القراءة.. تنوعت قراءاته، جمع بين تنوع المعرفة، وسلاسة التعبير عنها، جذب الى مجلسه عددا كبيرا من أهل الريف، ينعمون بحديثه، ويحظون بكرمه، ويستظلون بشهامته.

انتظم الصبى فى مجلس أبيه، يرتوى من هذا النبع، الذى يشبع نهمه للتميز، ويرضى رغبته فى الانتساب إلى الرجال.

نوع معين من الكتب، التى كان والده يقرأها، أثار شهيته كتب السير والبطولات الشعبية: كتب الهلالية، أبو زيد الهلالى سلامة، دياب، الزناتى خليفة، وكذلك عنترة بن شداد، وسيف بن ذى يزن، والملكة ذات الهمة!

ا[illegible]ـلم الأولى، فى تلك الأيام يكفل للصبية القراءة فى سن مبكرة،
[illegible] [illegible]انا على تلك الكتب، يلتهمها، بهره ما فيها من شجاعة وبطولة،
[illegible]ان يقرأ بوجدانه، وبعقله الصغير.. أصابت هذه القصص هوى فى فؤاده،
جعلت أحلام البطولة تتخايل له فى سن مبكرة.. اتخذ من شخصياتها مثلا عليا فى الشجاعة والإقدام.

هكذا لعبت بخيال الصبى صور التميز والبسالة، والشعور المبكر بالرجولة.. لم تكن تشغله الهموم التى ترهق أقرانه: الأرض تنز سمنا وعسلا.. أبوه وجيه يقود الرجال، بينما يتولى هو قيادة الصبية!

أسهم التراث الشعبى فى غرس البطولة فى وجدانه، مكانة أسرته جعلت شعراء الربابة يفدون إلى منزلهم من كل فج.. يقيمون الليالى الساهرة من بعد صلاة العشاء، إلى أن ينبلج الفجر.. على أنغام الربابة كانت تتلى قصص الأبطال الشعبيين، بصوت الشاعر الرخيم.

سعد الصبى بهذه السهرات سعادة بالغة، حفظ أغلب سير البطولة، كان يرددها بنفس الطريقة، التى كان يؤديها الشاعر بها.. كان الحفظ سهلا عليه، قرأها من قبل، وهاهو يغردها مع الشاعر.

فى ليلة من الليالى، كان الشاعر منسجما فى قص سيرة عنترة، وحبه الجارف لعبلة، ولكن الشاعر يقول:

- كان «عنتر» يخجل من لونه الأسود، وخاف أن يتقدم لوالد عبله، يطلب يدها، فيرفضه نظرا للونه...

قاطع الصبى الشاعر قائلا:

- لا.. عنتر لم يخجل من لونه، ولم يعرف الخوف إلى قلبه [illegible]
لاتقل إن عنتر كان يخاف أحدا!

غمر العرق وجه الشاعر، لكنه تقبل الملاحظة بصدر رحب، فهو [illegible]
منزل الصبى ووالده يغدق عليه العطايا.

درج الصبى على السهر مع الرجال، يستمعون إلى الشاعر، حتى تصيح الديكة على مشارف الفجر.. يتمثل فى هذه السن الصغيرة بأبطال الفولكلور الشعبى.. ويحاكيهم فى بطولاتهم، إلى أن وقعت الواقعة!

جاء إلى ناظر المدرسة الأولية بالقرية، شاب فلاح فى العشرين، قال له:

- ياحضرة الناظر، أنا لى شكوى ضد التلميذ فيصل حسن.

ورد الناظر:

- أى شكوى؟

- هو مدين لى بقرش صاغ!!

- متى أعطيته له.. أبوه ميسور الحال.. كيف يقترض منك نقودا؟

- أنا لم أقرضه.

- أمال عملت إيه؟

- أنا لعبت معه «الكوتشينة»!!

أخفى الناظر الصدمة التى أصابته، كان قصيرا «مكيرا» قادرا على إخفاء مشاعره، ولم يمنعه قصره من أن يكون وجيها، يرتدى جببا وقفاطين بالغة الأناقة..

قال للشاب مبتسما:

شف؟

غلبته مرّتين.. كل مرة بقرش تعريفة.

- يعنى الولد فيصل بيلعب معك قمار؟!!

- لا.. ده مش قمار.. دى تسلية!!

- تسلية؟ جميل.. انت اللى بتغلبه بس؟

- لا.. هو غلبنى مرة واحدة، وأنا بغلبه على طول.

- وبعدين؟

- طلبت منه القرش الصاغ، مارضيش يدفعه!!

- طيب تفضل أنت وأنا أخليه يدفع لك القرش.

- الله يخليك ياحضرة الناظر.. أنا خالى شغل، ومحتاج للقرش قوى!!

انصرف الشاب.. استدعى الناظر فيصل وسأله:

- كيف تقترض نقودا من السباعى عبيد؟

وأجاب فيصل بثقة الصبى المتميز جليس الرجال:

- أنا لم أقترض من هذا «الولد» شيئا!

- هذا الولد سنه عشرون سنة، أى أنه رجل.

- طيب وإيه يعنى.. أنا باقعد مع أكبر منه.

- أمال القرش اللى عليك له جه إزاى؟

وأجاب فيصل بشجاعة وصدق، فهو درس سيرة الأبطال، والأبطال لايكذبون!!

- هذا القرش أدين به إليه، لأنى لعبت معه الكوتشينة.

- يعنى انت «بتلعب قمار»؟!

تلعثم الصبى «الشجاع» لم يدر كيف يجيب.. كان الناظر قد بلغ به الغضب مداه..

شعر بأنه مرب مسئول عن التلميذ.. كان كذلك واثقا من والد فيصل إنسان فاضل.

لايقبل أن يلعب ابنه القمار مع «الصياع».. نادى الناظر الفراش فى عصبية:

- تعال ياسالم.

- نعم ياحضرة الناظر.

- هات العصاية الخرزان.

عندما أحضرها سالم، قال له الناظر:

- مد الولد ده!!

أنام الفراش فيصل على ظهره، وأمسك بقدميه ورفعهما، أعطاه الناظر «علقة» بالخيرزانة، بلغ من عنفها أن سالت الدماء من قدميه، ذهب فيصل إلى بيته يعرج.. أخفى آثار الضرب عن والديه، كان قد عقد مع الناظر اتفاقية «جنتلمان».. أن يتكتما الأمر على الوالد، ويعده فيصل ألا يعود إلى القمار مرة أخرى.. وفعلا كانت هذه العلقة آخر عهده بالقمار.. فلم يلعبه ولو على سبيل التسلية، ولا على طريقة دفع المغلوب حساب الطلبات التى يشتريها اللاعبون فى القهوة.

كانت العلقة قاسية.. ذهبت بالقمار إلى غير رجعة.. ولكنها زرعت فى نفسية الصبى بذورا ربما تكون أقسى من القمار.. زرعت الخوف، وبذوره الأولى فى نفس الصبى، كان قبل ذلك راضيا، لاخوف من الجوع والفقر، الذى يتهدد الصبية الآخرين، كانت نفسه شجاعة، تتراءى له مخايل الرجولة، وجد أبطال السير الشعبية فيها تربة خصيبة، أنبتوا فيها الرجولة قبل الأوان.. وجاءت علقة القمار، فسربت الخوف إلى وجدانه، ليربض فيه زمانا طويلا، لم يقتصر أثرها على الآلام التى أحدثتها، كانت بؤرة تجمعت فيها عوامل القهر والخوف، التى عصفت به خلال حياته، أصبح داخله غابة من الخوف زرعتها علقة القمار.

الغريب أنه لم يحقد على الناظر لكنه كان يخافه.. ويخاف الضرب بالعصا، هل يعتبر الخوف أسوأ من الحقد، دارت فى ذهن الصبى خواطر صغيرة وكبيرة، إنه تلميذ صغير.. لابد أن يحترم الناظر، ولكنه كذلك ليس صغيرا!! ألايجلس مجلس الرجال، ويتشبه بأبطال الفولكلور؟ كيف يضربه هذا الناظر القزم، وهو يطاوله طولا؟!!

كان خلال علقة القمار، المفاجئة، قد أخذ على غرة، وتعطل تفكيره، ولكنه حينما ذهب إلى بيته، وجرت هذه الخواطر السود فى رأسه، قرر أن يعود للناظر ويظهر له رجولته فى عمل مضاد.. لكن عقله لم يكن صغيرا، صغر سنه، عدل عن فكرته، فهذا ناظر مرب، على أية حال..

وقد يصل الموضوع إلى والده، وهنا تكون الطامة.

لم يقتصر أثر فاجعة القمار على أن الخوف عرف طريقه إلى قلب

الصبى، لم يكن يعرف كلمة الخوف، ولم يحس به من قبل، الناظر الآن ر، دربه للخوف، لاضمان أن يفتك به بعصاه الغليظة لأى خطأ يرتكبه. لم يكن يدرى أن لعب الكوتشينة مؤثم أم غير مؤثم.. كيف يكون العقاب قاتلا على أمر لم يجرمه له أحد؟

انساب الخوف من الناظر إلى الخوف من أبيه، لقد وعده الناظر بأن يخفى الأمر عن أبيه، لكنه وحش كاسر رغم جسده القمىء.. وقد يبلغ الأمر لوالده، أصبح الخوف كابوسا يجوس داخله.

(٢)

جراح القمار فى قدميه أخذت تندمل.. الخوف أخذ يتراخى.. لم يش الناظر به عند أبيه.. لكن حادثا جللا صفعه بقسوة.. لم تكن عقوبته الضرب بالعصا، لكنها كانت عقوبة معنوية تركت فى نفسه شعورا أكثر مرارة من الضرب بالخيزرانة.

انتهى الصبى من دراسته «الأولية» بالقرية، والتحق بالمدرسة الابتدائية بالمركز، كان متفوقا فى المدرسة الأولية، يبدو أن ذلك كان جزءا من تميزه على أقرانه، واصل تفوقه فى الابتدائية، لكن تلميذا آخر من الطبقات الفقيرة فى القرية نازله فى امتحان الشهر الأول من السنة الأولى، وهزمه، تفوق عليه بنصف درجة.. كان ترتيب زميله الأول، وهو الثانى.

نصف الدرجة هذه كانت كارثة!! حينما حمل النتيجة لوالده أنزل به عقوبة فاقت فى إيلامها «علقة» الناظر.. لم تكن آلامها عضلية محسوسة،

... الاما معنوية لاتطاق: بصق أبوه فى وجهه.

فجع الصبى فى أبيه.. كما فجع من قبل فى ناظر المدرسة، وتساءل وهو فى هذه السن الصغيرة: كيف يمكن أن يكون المسئولون عنى فى البيت وفى المدرسة بهذه القسوة؟ الذى يربينى فى المدرسة وحش، والذى يربينى فى المنزل، ينزل بى مهانة جاوزت الخوف إلى التحقير من شأنى.. لم يكن الضرب المادى سببا لما يعانيه من آلام، ولا الإذلال الذى صبه عليه والده.. ولكن أعز الناس لديه فى البيت والمدرسة: أبوه ومعلمه، يمزقان الصورة الحلوة، التى رسمها لنفسه، وهو يقرأ سير هؤلاء الأبطال الشعبيين، ويستمع إليها من شاعر الربابة.. أولئك الذين أصبح يتشبه بهم ويعد نفسه ليسير على دربهم.

اختلطت عقدة الخوف والإذلال التى سببها له الناظر وأبوه بالمعانى الجميلة التى تدغدغ مشاعره حينما يجلس إلى هؤلاء الأبطال يقرأهم، كيف يمكن لفارس صغير يهيىء نفسه ليكون فارسا كبيرا أن يضرب ويبصق فى وجهه؟ وهو الذى يعد نفسه ليضرب الرقاب ولتعنوا له الوجوه؟!!

هل ضربوا عنترة بالخيرزانة ، تقطع قدميه؟ هل بصق والد أبو زيد فى وجه ولده؟

لم يحمل الصبى لوالده أو لناظره موجدة.. مازالت براعمه لم تتفتح تضم وريقاتها على نقاء وطهر.. لم يطف بذهنه أن ينتقم لكرامته المهيضة.. تقبل ما جبل الناس عليه: النظر إلى آبائهم ومعلميهم نظرة المربى الحنون، مهما كانوا قساة: «الناظر وأبوك يودان لك الخير»!!

حين تقدمت به الأيام أشاد «بعلقة القمار»!! لم يقرب القمار طوال حياته.. تقبل بصقة أبيه فى وجهه، أصبح بعدها متفوقا لايبارى.. كان أول فرقته دائما.. تفصل بينه وبين الثانى مسافة شاسعة.

على أن شعورا خفيا مدمرا تسلل إلى وجدانه، خرب الخوف مافى قلبه من شجاعة.. ومزق التحقير مافى خياله من بطولة.. كان هذا الشعور ينداح فى وجدانه، دون أن يحس له لسعا.. يبدو أن التفوق أعاد له بعض مافقد.. هاهو ينظم صفوف التلاميذ فى طابور الصباح.. ويشرف عليهم فى حجرة الدراسة فى الفترات التى لايوجد فيها مدرسون.. أثار ذلك فيه روح التميز، التى صاحبته فى سنيه الأولى فى القرية، استيقظت فيه من جديد الرغبة الكامنة فى التشبه بالفرسان الشعبيين.. ألا يتخذ مكان القيادة من زملائه؟!!

ماكان ينعم بالصدارة بين زملائه، حتى فاجأته حادثة أخرى.. لم يشفع له التفوق، ولاقيادة التلاميذ، فى أن يحاسبه الناظر محاسبة فاحشة عن خطأ قيل بأنه ارتكبه!!

فى يوم مطير زمهرير، كان الصبى وتلميذ من أقاربه، يمتطيان حمارا، يهرول بهما من القرية إلى المدينة، التى توجد بها المدرسة الابتدائية: خمسة كيلو مترات من الطين والزلق.. الحمار المسكين يعانى وعثاء الطريق، والمطر المنهمر، لم يستطع أن يثبت حوافره فى الأرض.. فانزلق بهما.. ووقع على الأرض مرات عدة ترتب على ذلك أن تأخرا عن موعد دخول المدرسة فى الصباح.

كانا ملطخين بالوحل، لم يرحمهما ناظر المدرسة الابتدائية، الغريب أن

الناظر هذا أيضا قصير القامة جدا، نحيل هزيل، كناظر المدرسة الأولية، الفارق بينهما أن هذا معمم وذاك «مطربش» وهو يعرف التلميذ فيصل من أول الفرقة.. تلميذه فى اللغة الإنجليزية.. يحصل فيهما على الدرجات النهائية.. ولو!!

ناظر المدرسة الابتدائية لديه وسيلة أخرى للعقوبة، كانت أكثر تطورا وإيلاما، تتناسب مع النقلة التعليمية من المستوى الأولى إلى المستوى الابتدائى: مسطرة كبيرة، حرفها حاد كالسكين، أمسك بها الناظر.. كانت أطول من ذراعه النحيلة.. صرخ فى فيصل:

- مد إيدك.

مد يده راحتها لأعلى.

- إنت عامل نفسك حدق!! اقلب إيدك!!

قلب الصبى يده التى جمدها الزمهرير.. وعلقت بها آثار الطين.. ظل الناظر يضرب الصبى بحد المسطرة وذلك فعل بقريبه إلى أن تجمد الدم فى أيديهما.. واستحال لونها إلى زرقه داكنة.. لم يرحمهما الناظر، إلا بعد أن تعب هو من الضرب.. كان يضرب التلميذين ضربا انتقاميا.. لاتلحظ أثرا للتربية فيه.

هكذا أصبح المربون الفضلاء: الناظر الأولى والناظر الابتدائى والأب.. زراعا للخوف والمهانة فى قلوب الأبناء.. لم يحلل فيصل هذه الصورة من الإرهاب لم يكن عقله قد بلغ مرحلة التحليل بعد.. ومع ذلك برر للناظر الابتدائى عنفه: لو تساهل معنا، فإن النظام فى المدرسة سوف يختل، فسر

تصرفه تفسيرا إيجابيا!! «أنا أول الفرقة، وأشرف على النظام فيها ...
لايحافظ المسئول عن النظام على مواعيد المدرسة.. إنه درس لا... استوعبه، رغم أن هذا ليس خطئى، ولكنه خطأ الحمار»!!

كان فيصل رقيق الوجدان، مرهف الحس ينبض قلبه بقصص البطولة والتفوق، تداعبه بين الفينة والفينة خطرات رومانسية غذاها الريف بلوحاته الجميلة: ألم تكن لأبطال الفولكلور قصص فى الحب، كانت عبلة محبوبة عنترة.. والجازية فتاة أبو زيد.. رف بقلبه خاطر: لماذا لاأحب حبا عذريا، كما كانوا يحبون؟ لماذا لا أصادق إلا الأولاد والرجال؟!! البنات تلون الصداقة بألوان لاتتوافر لدى الرجال.. على أية حال، أنا صغير السن، نقى، ولن أرتكب حماقات الكبار.

انتقى بنتا من بنات القرية.. تلميذة أيضا فى مدرسة البنات الابتدائية، اختياره ينم عن ذوق فنى رفيع، جلس معها على حافة غدير من الغدران التى تحف بالقرية، ويترقرق الماء فيها دررا تسابقها درر.. كان الحديث حبيا.. بعيدا عن العبارات التى تشغل الصبية، حينما يتحولون إلى شباب، لم يصلا إلى هذه المرحلة بعد، الأصيل يسكب ذهبه على أهداب الفتاة، وعلى شعرها، وكأنه يضع لمسة ذهبية فى هذه اللوحة السندسية.

فجأة.. يظهر والد الفتاة، ويصفع الفتاة بيده الغليظة الخشنة على وجهها وينقلب الذهب فى أهداب الفتاة إلى دم قان فى عينيها، ويشهد الصبى صورة للذعر مجسما.. كان الخوف ينصب عليه هو، فلا يراه، الصورة الآن رهيبة.. تجمع بين رؤية الرعب والإحساس به!!

تحركت فى نفسه كل صور الخوف التى ألمت به فى الماضى.. لم يكن فى سن يسمح له بالاحتجاج على هذه الصفعة الثانية.. أفكار البطولة اليافعة، والفروسية الصبية كانت تغازله، هل يستطيع أن يفعل شيئا للدفاع عن صديقته؟ أليس من خصال الفارس أن يحمى فتاة أحلامه!! أو على الأقل يثور من أجلها؟

تضاءل أمام ناظريه الضرب المبرح على بطن قدميه وعلى ظهر كفيه، الذى قام به الناظران الأولى والابتدائى.. لكن بصقة والده تسلطت على ذهنه.. مازال يحس لزاجتها ورذاذها.. هل يرضى بالتفوق كتعويض للبصقة.. «لكن التفوق يجب أن ينبع منى.. وليس ناتجا لعقوبة مهينة»، حتى لو كان أبى هو مصدر العقاب.. هل أنا متفوق، لأنى ذكى، أم لأن والدى بصق فى وجهى؟ وأذاكر ساعات أكثر لأتفوق خوفا منه، هل يمكن أن يكون الخوف مصدرا للتفوق؟

أنا لاأقبل أن يقال عنى: «هذا ولد متفوق لأنه يخاف أباه.. ولولا ذلك ماتفوق»!

اتخذ قرارا صبيانيا ندم عليه طول حياته: سوف لا أذاكر هذه الساعات الطوال، خوفا من والدى، لابد لى أن أثبت أننى ذكى ذكاء طبيعيا.. وتفوقى لايرجع للمذاكرة المكثفة، خوفا من بصقة أخرى، تراخى فى الاستذكار.. قلت الساعات التى يقضيها مع كتب المدرسة.. ولم يسعفه الذكاء، أو الاعتداد بالذات.. تخلف عن الأولوية فى تلك السنة.

كان العقاب أشد وطئا، كانت المدرسة تمنح المجانية له لحصوله على

الأولوية، عندما تخلف عنها، حرمته من التعليم المجانى، صادفه سوء حظ كبير، عصفت بأبيه أزمة مالية، ضاعت معها أملاكه، لم يستطع دفع المصروفات المدرسية، وفصل من المدرسة.. مكث فى البيت قعيدا عاطلا.. تمنى لو يبصق والده فى وجهه من جديد.. لكن أباه جف ريقه، لم يبق فيه مايبصقه.. الأزمة حطمته فلم يعد بقادر حتى على البصق.

(٣)

ألمت به بأساء عاتية.. الخوف عنده يغدو مركبا، أضيفت إلى الخوف القديم صور أخرى: الخوف من الحرمان من التعليم، ومن البطالة وماتجره من جوع، وعيش ردىء..

صدمة الانقطاع عن التعليم شديدة الوقع على نفسه الرهيفة.. إلا أنه كان محظوظا.. قبل أن يدهمه الخوف من البطالة، وجد عملا فى مصنع للنسيج.. هل تقيه الصناعة من غائلة الخوف.. ملامحه القبيحة تحيط به فى كل مكان.

على أن خياله مازال بكرا.. تتراقص فيه خيالات الفروسية.. يتراءى له عنترة وأبو زيد يختالان فوق الخيل.. ويضربان بسيفيهما أعداء البشرية، ودعاة الخوف.. ومع انفساح خياله، فهو يعرف قدر نفسه، أحداث الخوف تلاحقه، يحاول تجنبها إن لم يستطع مواجهتها.

تجربته مع الخوف قصيرة: ناظران يلهبان قدميه ويديه بشراسة.. تحمل العذاب وبرره: أنه تعذيب تربوى.. غسل المهانة التى أصابته ببصقة أبيه فى

المحبة الأبوية، والتوجيه الحنون!!

ألم تكن الفاجعة التى ألمت به، وحرمته من التعليم ثورة على هذا الحنان، وشجاعة صبيانية، أراد أن يثبت بها ذاته، فأجهزت عليه، ومع ذلك فما زالت أحلام البطولة تحثه على مزيد من الشجاعة.

فى أول يوم من عمله بالمصنع، شهد ظاهرة غريبة عليه، العمال يهرولون فى أروقة المصنع: وجوه شاحبة، وأيد مرعوشة، وأجساد مهزوزة، سأل أحدهم:

- ماذا حدث؟

- لاتسلنى.. إجر!! احتل مكان عملك.. وشغل آلتك بسرعة.

- ماالخبر؟

- مدير المصنع يمر.

- وإيه يعنى؟!

- إيه يعنى إزاى؟ يظهر عليك أنك صغير، لاتعرف شيئا؟

- أنا أعرف عملى، وأؤديه.. وهذه هى آلتى التى أشغلها، تعمل بكفاية.

- ولو!! لابد أن تهتم بالعمل أمام المدير.. علشان يقول عليك مجتهد.

- ياإلهى الخوف يقلل من كفاية العمل.. والأيدى المرعوشة ضعيفة.

- لا ياعم.. كلامكماينفعنيش.. سيبنى أترعش قدام المدير وآكل عيش!!

لم يستطع الصبى أن يدرك العلاقة بين الرعشة والكفاءة، ورضا المدير وأكل العيش.. معان غريبة عليك، خبرته بها قصيرة، يوم واحد من أيام

...عمل، لايعاونه على فهم دقيق لمدلولاتها.

وفى اليوم التالى، انقلب المصنع رأسا على عقب، هرولة الأمس... ...ور المدير، أصبحت جريا وركضا، رعشة الأمس أصبحت رعبا، ... الأجسام، وحبس الأنفاس فى الصدور، سأل الصبى زميله:

- ماخطبنا اليوم؟

- خطبنا اليوم جسيم.

- كيف؟

- صاحب المصنع هو الذى يمر اليوم.

- هل صاحب المصنع غول يخيف الناس؟

- الذى يخيفنى فى هذه اللحظة، هو ذلك الهدوء الذى تتحدث به عن صاحب المصنع!

- لماذا بربك يسود جو من الذعر يكاد يشل العاملين، لأن صاحب المصنع يمر؟

- يبدو أن سنك الصغير تجعلك غير مقدر للخطر ولا للمسئولية!

- أى خطر يحدث بمرور صاحب المصنع؟ وماهى مسئولية العمال؟ أليس أهم دور لهم أن ينتجوا بكفاية؟

ألا يهد الرعب حيلهم، وينقص من انتاجيتهم؟

- أمر غريب، كم سنك؟!

- أنا فى الثالثة عشرة!

- فى الثالثة عشرة، وتتحدث بمثل ذلك العقل، وتلك الثقة؟!!

- ولماذا لايفعل الجميع ذلك.

- أنت لاتدرك شئون الحياة.

- لعلك تعاوننى على إدراكها.

- صاحب المصنع، مصدر رزق لماية عامل من البالغين ولخمسين صغير!! يعملون عنده.. أرزاقهم بين أصابعه، إذا ماأشار لواحد منهم باصبعه إلى الباب، انقطع رزقه، وجاعت أسرته، لذلك «يشخط وينطر» فينا ونحن سكوت، لانستطيع نقول له ردا، والإنسان الذى يجسر على مناقشته مطرود «مطرود ياولدى».

- أهذا الرعب الذى يحدثه يرضيه؟

- تمام الرضا!! انه يرى أن العمال حين يخافونه ينتجون أكثر.

- عجبا!

- بالإضافة إلى أن الخوف دليل على الاحترام!

قيم غريبة على الصبى.. عهده بالاحترام، أن يكون طبيعيا بين الناس.. فأنت تحترم الإنسان الذى لايؤذيك احتراما متبادلا.. تعلم من البيئة التى نشأ فيها أن يحترم الكبار، وأن يحترم والديه، وكذلك مدرسيه ونظاره.. كان كذلك يحترم أقرانه، فهم يحترمونه، ويضعونه مكان القيادة منهم!! كيف يفكر صاحب المصنع أن يخيف العاملين فى مصنعه لكى يحترموه؟ وكيف يكون الخوف وسيلة لزيادة الإنتاج؟!

توقف صاحب المصنع عند القسم الذى يعمل فيه فيصل.. رأى ولدا غريب الأطوار الجميع يهرولون ويرتعدو، وهو ثابت أمام النول الذى يشغله

بكفاءة.. لم يكلف نفسه بالنظر إلى صاحب المصنع..

هل انزعج الرجل لأن الذعر الذى أثاره لم ينسحب على هذا الفتى؟ أم أنه لاحظ أن تصرفه غير طبيعى؟ فالكل مرعوب إلاه.. اقترب من الصبى وسأله:

- ماأسمك؟

- فيصل حسن.

- هذا اسم عربى جميل.

- والدى مصرى عربى.

- هل لهذا الاسم علاقة بشجاعتك؟

- أى شجاعة؟

- أراك مشغولا بعملك، تؤديه فى هدوء، ولاتشعر بما حولك، ولاتكاد تحس بأن صاحب المصنع يمر، وهو أمامك يخاطبك!!

- الانشغال بالعمل هو مهمتى فى هذا المصنع، انتاجى أكبر من الآخرين، الذى تطيروا لما علموا بمقدمك.. وأنا أحادث والدى بهذه الطريقة.. تسميها أنت شجاعة، وأسميها أنا «احترام» ليت الناس هنا يحبونك بدلا من أن يخافوك.. عندها سترى كيف تقفز أرقام الانتاج.

لم تكن هذه اللغة أليفة عند صاحب المصنع.. ولاندرى إن كانت إجابات الغلام قد أرضته أم أغضبته، هل يدرك رجل الأعمال أن الحب لا الخوف، هو الذى يولد الولاء بين الناس؟ أم أن القيم البالية، مازالت تشاغله: يجب أن يظل «البعبع» الذى يخافه العمال.

(٤)

انتشر اسم الصبى فى أرجاء المصنع.. سمع العمال عن المحادثة التى جرت بينه وبين مالك المصنع.. أصبحت له شعبية لم يقصد صنعها، لكنها جاءته «تجرر أذيالها»!! أحبه شباب العمال وصبيته، شغفوا به وبالحديث معه.

النقابة العمالية مقصور عضويتها على البالغين من العمال، وهو مازال فى الثالثة عشرة.. العمال معجبون به.. انبثقت فى ذهن أحدهم فكرة عبر عنها لزملائه.

– نختاره مستشارا للنقابة، وليس عضوا بها!

وقال آخر فى لهجة تخفى بعض الحسد:

– ده عيل!! صغير على وظيفة مستشار!

وأجاب صاحب الفكرة:

– الكلام الذى تحدث به مع المالك، لم يكن كلام صغار.

رحب به العمال مستشارا لنقابتهم.. انتشر النبأ فى المصنع.. سعد به زملاؤه وأقبلوا عليه.. على الرغم من صغر سنه، كان طويل القامة، مظهره أكبر من سنه، وقد تكونت له شخصية، استمدها من تفوقه فى المدرسة، وزعامته لصبية القرية، وقراءاته فى كتب التاريخ وسير الأبطال.

كانت معظم استشاراته تدور حول هويته الأساسية: الشجاعة وقهر الخوف.. سرت أفكاره إلى كثير من العمال، وأخذوا يستخفون بالخوف.

انزعج مديرو المصنع لهذا الاتجاه.. تسبب رأيه الاستشارى فى انحسار

موجة الخوف.. كان سلاحا فى يد المديرين يحفظ لهم مكانتهم.. تسلل الانزعاج إلى مالك المصنع.

وشى المديرون بالصبى عنده.. الامبراطورية التى يملكها يتسرب الخوف منها.. كان الرعب فى عيون العاملين يسعده، ويشمخ بأنفه!! الخطر أصبح وشيكا.. يجب مواجهته.. اتخذ قرارا «سياديا»: يفصل العامل فيصل حسن من المصنع نهائيا!!

قامت قيامة العمال، تصدت النقابة بالعمل الجماعى لوقف هذا القرار المتعسف، أضرب العمال، احتلوا المصنع، انخفض الانتاج إلى الصفر.. كانت الفترة رخاء.. حاقت بمالك المصنع خسارة جسيمة، وفقد أرباحا عالية، لم يستطع المقاومة طويلا.. أصدر قرارا عاجلا آخر: يعود العامل فيصل حسن إلى العمل بالمصنع، ويمنح أجرا عن الأيام التى فصل فيها!!

تهلل العمال وهللوا.. سادت فرحة طاغية.. عاد العمال إلى عملهم.. ارتفعت معنوياتهم.. زادت انتاجيتهم.. نعم صاحب المصنع بأرباح كبيرة مرة أخرى.

عاد فيصل إلى عمله بالمصنع وإلى عمله الاستشارى بالنقابة، ومع تقدم سنه، كان جسده ينمو بدرجة أسرع.. وتزداد استشاراته معقولية ورشدا.. ومع ذلك فقد استغرق فى هذه المرحلة من عمره فى قراءات رومانسية.. أعاد قراءة غرام عنترة وعبلة.. وأبو زيد والجازية.. ثم عرج على قيس وليلى.. وانتقل إلى روميو وجولييت.. وماجدولين.. واستظل معها بظلال الزيزفون.

(٥)

يبدو أن محاربة الخوف، أصبحت رسالة لصبينا.. جنحت قراءاته لادراك أسباب الخوف من ناحية.. وإلى وسائل قهره من ناحية أخرى.. وغاص فى قراءات فى الشجاعة والجرأة.. ظهرت حصيلة اطلاعاته فى استشاراته النقابية.. من الغريب أن تجاربه الشخصية فى الخوف أثارت فى نفسه قوى مضادة تصارع الخوف.. يبدو أن هذه التجارب التى مر بها قد أطلقت فى داخله طاقات هائلة، استخدمها فى دعوته لمقاتلة الخوف.. وتحرير الإنسان من المهانة التى يسببها له.

ومن كلماته التى بثها بين العمال: «أنتم قوة عاملة قوامها مائة من الرجال، ذوى بأس شديد، وخمسين من الصبية الفرسان.. كيف تخشى هذه القوة عددا قليلا من المديرين، ومعهم صاحب المصنع.. قاتلوا الخوف، لتنعموا بالحرية والعيش الكريم».

وصل فيصل إلى سن الانضمام للنقابة.. اختاره العمال نقيبا لهم!! كان أصغر نقيب فى الحركة النقابية على الإطلاق، كان فوزه بمنصب النقيب حدثا هاما فى حياته العقلية.. أصبح ناضجا يقود مائة وخمسين من الرجال والصبية.. هل تحقق حلمه الرومانسى؟ هل وصل إلى مكانة أبطال الفولكلور؟ بدأ يراجع خياله بواقعية.. ليس بيده سيف، ورمح يصرع بهما خصومه، وخصوم قومه، وليس لديه درع يتقى به صعنات الأعداء.. كل مالديه مجموعة بشرية تحبه، وتضعه فى الصدارة ليدافع عن حقوقها.

ليس فى المصنع معارك كتلك التى خاضها عنترة وأبو زيد.. هناك علاقة

لها طرفان.

حقا إن لكل منهما مصلحته الخاصة.. صاحب المصنع يبغى من إنتاج مصنعه ربحا..

والعمال يريدون أجرا.. يكفل لهم ولأهليهم حياة كريمة.. لماذا لاتقوم العلاقة بينهم على هذا الأساس؟ أيمكن أن يتفهم كل طرف حق الآخر فى الحياة؟

أيمكن أن يدرك صاحب العمل حق العمال فى الإنتاج الذى تصنعه أيديهم؟

هل يلزم لهذه العلاقة أن يزمجر صاحب المصنع، ويصعر خده للعمال؟ ويثير فيهم الرعب والمهانة؟

عندما تبوأ قيادة النقابة، أخذ يقرأ قراءة مكثفة فى النظم النقابية.. بحث فى حقوقو العمال، وملاك المشروعات، ودور الدولة، قاده ذلك للإطلاع على النظم الديمقراطية والفاشية.. وحركات الشعوب، وثوراتها وتحررها.. قرأ فى السياسة والاقتصاد.. أراد أن يقوم كفاح زملائه فى المصنع.. بعقله ومعارفه.. لا بالفروسية والإقدام اللذين كان خياله يستمدهما من أبطال الفولكلور.. ومع ذلك كان لهؤلاء الأبطال فضل عليه.. زرعوا فى فؤاده الجرأة والجسارة والدفاع عن الوطن والأهل والحق.. كان لهم فضل آخر: جملوا له أخلاق الفرسان ومافيها من شهامة وشرف وتضحية.

دلته قراءاته وتجربته أن كنه الديمقراطية هى أن الأغلبية الكبرى من الناس يجب أن تحكم.. وأن تكون تلك الأكثرية ممثلة تمثيلا صادقا، بواسطة أولئك

الذين يمثلون مصالحها الاقتصادية والسياسية والحياتية.. تساءل: لماذا لاتقوم علاقة أخوية بين صاحب العمل والعمال؟ لماذا لايحترم صاحب العمل عماله ويعاملهم كرجال؟ هذا يرفع معنوياتهم فيعطونه أقصى مالديهم من عمل وانتاج وولاء.

لماذا لايدرك صاحب العمل أن العمال المنتجون وأن لهم نصيبا معقولا فيما ينتجون؟

إن رأسماله وأدواته وآلاته تصبح مواتا إذا لم تمسسها وتحركها سواعد العمال القوية، وعقولهم الخلاقة.

مضى النقيب الجديد يبشر بأسلوبه المثالى، الذى بناه على المعانى الطيبة فى الإنسان، وعلى إدراكه السليم لحقوقه، وحقوق الآخرين، لقد نجح فى هذا المجال نجاحا ملحوظا.. نجح على الأقل فى استلال الخوف من قلوب العاملين.

أصبح العمال يدخلون العمال، ولايصيبهم الذعر، حاول إقناع صاحب المصنع بأن القضاء على الخوف بين العاملين يطلق طاقاتهم المبدعة، ويزيد الانتاج، وهذا يعود عليه أكثر مما يعود على العمال.

مضت الأمور على هذا النحو، ثم وقعت واقعة، أيقظته من مثاليته.. وصعدت بالعلاقة بين مالك المصنع والعمال إلى السطح.. وأدى الأمر إلى مواجهة قد تصبح عنيفة.. لم يكن يحب العنف.. فروسية أبطال الفولكلور التى كانت نبراسا له، كانت تقوم على الرماح والسيوف والدروع، على أن القتال فى مخيلته كان قتالا رومانسيا.. يفتك الفارس بخصومه، فيتساقط

الأعداء بالعشرات، ذات اليمين وذات الشمال.. لم يتصور فى المعركة دماء ولا عنفا!!

كان لايرى إلا انتصار الأبطال انتصارا ناصعا!!

العمال يتحرشون بإدارة المصنع، وهذه تتحرش بهم.. موضوع زيادة الأجور.. هو لب النزاع بين الطرفين، الغلاء فاحش، الأجور ضئيلة، لاتكفى الحاجات الأساسية.. الهوة بين الأسعار والأجور عميقة.. مطالب العمال متواضعة.. لم يطالبوا كما تفعل النقابات فى أوربا وأمريكا بالفارق كله بين انخفاض الأجور وارتفاع أسعار السلع، بل طالبوا بـ ٥٠٪ من هذا الفارق.

موقف الإدارة وصاحب المصنع عنيف: «مفيش زيادة ولا قرش واحد».. صدم العمال.. هدد بعضهم الإدارة بالقيام بعمل جماعى.. هدأهم فيصل بحكمته: «علينا أن نحتفظ بهدوئنا.. وأن نفاوض صاحب المصنع وإدارته، حتى نحصل على حقوقنا.. فالحق والقانون معنا.. ولانريد لهذا الحق أن يضيع بمخالفة القانون».

طالت المفاوضات.. كانت عسيرة.. لم يتزحزح مالك المصنع قيد أنملة.. تأفف مندوبو العمال، طال صبرهم.. لم يجد الصبر نفعا.

دعت النقابة جموع العمال إلى اجتماع لبحث مشكلة الأجور.. كان اجتماعا صاخبا سادته هتافات عالية، وصرخات متشنجة من بعض العمال، تطالب بتحطيم المصنع، انزعج فيصل وبعض النقابين من هذه الهتافات، وقف يخاطبهم:

- أرجو أن تسمحوا لى بالقول، بأن هذه هتافات غير مسئولة وغير حاسمة فى حلّ مشكلتنا.. إن لنا حقوقا مكفولة بالقانون والواقع.. نحن ننتج انتاجا كفئا.. ومصنعنا يحقق أرباحا عالية.. ولنا حق فى الإنتاج والأرباح.. لكن دعونا لانرتكب حماقات، لن تنيلنا حقوقنا وقد تفسد قضيتنا.

سكت الجميع، وكأن «السكوت رضا»! ثم أخذ بعضهم يدلون بدلوهم:

■ هذه الإدارة لن تزيد أجورنا، تاريخها معا كله بخل: «تقتير علينا، وإغداق على الكبار، وأرباح كبيرة للمالك.. أقترح الاعتصام أمام الآلات، حتى تستجاب مطالبنا.

■ دعنا نقوم باضراب عن العمل.

■ ألا تدرى أن القانون يحرم علينا حق الإضراب.

■ هذا قانون فاشى.. كل النقابات فى الدول الديمقراطية، لها حق الإضراب لحماية العمال من أصحاب المشروعات.

ثم تناول فيصل القضية تناولا متأنيا، واقترح اتخاذ خطوات محددة:

● نتقدم بطلب مدروس عن الأجور والأسعار والأرباح.. ونطالب بحقنا فى ٥٠٪ زيادة فى الأجر، ونرسل نسخة من الطلب للحكومة.

● ننتظر رد المصنع خلال أسبوع إلى أن نتسلم ردا، لدى فكرة أخذتها من قراءاتى عن نقابات العمال فى العالم.. طريقة «الكاكانى».. وفيها لايلجأ العمال إلى الإضراب، ولكنهم يبطئون الإنتاج، وينخفضون بمعدلاته، وهو سلاح فعال فى ظروفنا، سيرغم مالك المصنع على أن نشاركه

جزءا يسيرا من الأرباح، نرفع به أجورنا.

صفق العمال للنقيب الصغير، انقضت المهلة دون رد، بدء تنفيذ القرار، وكان اقتراح فيصل «ضربة معلم» نقابى: لن يخالفوا القانون.. إنهم لايضربون.. القانون يحرم الإضراب لا الإبطاء، انهم يعملون، لكنهم يتحكمون فى عملهم.. لتحقيق مطالبهم المشروعة.

كانت الطريقة ذكية وفاعلة، الإبطاء يمكن تطبيقه على درجات.. بدأ العمال بخفض معقول فى سرعة العمل.. صاحب المصنع يركب رأسه.. خفض العمال سرعة العمل إلى النصف.. مازال المالك يمارى.. انخفض العمل بمقدار ثلاثة أرباعه.. أحس المالك بالخطر.. أخذ يتحادث مع العمال.

كان الرجل قد اتصل بالدولة فى مجال الأمن والعمل.. لكن لسوء حظه، كانت الدولة مهمومة بأمور بالغة الخطر، لم تتخذ إجراءات عنيفة ضد العمال.. العمال فى نظرها لم يضربوا، ولم يرتكبوا تخريبا.. كيف تشغل الدولة نفسها بمصنع واحد، ولديها مايتهددها: أعداء شرسون من الداخل والخارج.

انصاع رب العمل إلى العمال، بعد مفاوضات مرهقة، رفض زيادة الأجر بمقدار النصف.. هدد بترك المفاوضات وإغلاق المصنع، قاد فيصل خطا معتدلا ضد بعض العمال، الذى هددوا باحتلال المصنع، بل بلغ بهم الغلو أن نادوا بإدارة المصنع بواسطة العمال!!

جزع فيصل ومعه نفر من العمال من هذا الاتجاه.. بذل جهده ليسود التعقل.. أقنع زملاءه بالاكتفاء بزيادة قدرها ٢٥٪، وهى النسبة التى قبلها

رب العمل.

(٦)

عاد العمال إلى عملهم العادى.. تركوا طريقة «الكاكانى».. شكروا لها صنيعها.. وكان أثر العمل الذى قامت به النقابة مفيدا وفادحا.. كان مفيدا للنقابة: نظمت عملا جماعيا ناجحا.. زادت زجور العمال، ارتفعت معنوياتهم.. زادت انتاجيتهم، انتعش المالك والعامل معا..

وكان الأثر فادحا من ناحية أخرى: تسرب انتصار نقابة عمال مصنع النسيج إلى بقية القوى العاملة.

كانت الحملة ضد الخوف قد سبقت ذلك النجاح.. وفعلت فعلها بين العمال، لم يعودوا يهرولون عندما يرون أصحاب المصانع ومديريها.. كانت نقابة مصنع النسيج هى البؤرة الأولى، التى دفن فيها الخوف، ثم أعيد دفنه فى كثير من أماكن العمل الأخرى.. وكانت طليعة فى انتزاع حقوق العمال من غاصبيها.. غير إنها كانت كذلك الموقع الذى حدثت فيه النكسة.

لم يهجع العمال، الغلاء فاحش، ومستوى المعيشة متدن.. زيادة الأجور ٢٥٪ لاتسمن من جوع.. طالبوا بزيادة ٢٥٪ أخرى.

رفض المالك مطلب العمال، لجأ الى الدولة مرة أخرى.. قال لهم كلاما منذرا: هذه هى نتيجة تراضيكم فى المرة السابقة.. نجاح العمال أغراهم على المطالبة بزيادة جديدة.. بادروا بقمع الحركة قبل فوات الأوان.

لم يقتصر العمال المتحمسون على طلب الزيادة الثانية فى الأجر فورا،

بل هددوا باستخدام وسائل عنيفة: الإضراب والإعتصام، واحتلال المصنع، وحتى دون هذه الوسائل، كان التحالف الطبيعى بين الدولة ورجال الأعمال قد عاد سيرته الأولى.

أحاطت بالمصنع فرق حربية، وفيالق من الشرطة، والأمن المركزى، جاءت من كل صوب: لوارى تحمل المشاة، وحاملى الرشاشات، عربات مصفحة، ودبابات، تصوب مدافعها نحو مبنى المصنع.. الطائرات العسكرية تئز فى السماء، فوق المصنع، والمنطقة المحيطة به، المدفعية الثقيلة جاءت تصحب جحافل الجند.. حوائط المصنع الرقيقة لاتحتاج داناتها الثقيلة.

اقتحم الجنود المصنع، قبضوا على أعضاء النقابة جميعا، المعتدل منهم والمتطرف، قبضوا كذلك على العمال المعتصمين، سيق الجميع وسط هذه الجنود المدججة بالسلاح إلى أقسام الشرطة.

هناك صبت عليهم جرعات مكثفة من الرعب.. أستلت من وجدناهم ماكان قد تسلل إليها من شجاعة، واستهانة بالخوف، لم يبق على أجساد العمال مكان لتلك الشجاعة، تلاصقت الكرابيج فوق ظهورهم، فلم تبق لها مكانا.

قال فيصل لهم:

- ياأصدقائى.. لماذا تعذبوننا؟ نحن لم ننكر أننا قمنا بالإضراب، وعقوبته موجودة فى القانو، وكان الرد عليه:

- نحن نعذبك لجريمة أكبر.. أنت أذعت الفوضى بين صفوف العمال، وعملت على نزع الخوف من السلطة من صدورهم، وهذا إثم عظيم.

- الخوف، ياأخوتى، يشوه الإنسان ويعجزه عن أن ينتج، ويبتكر، ويتحضر. -

- لدينا أوامر بتعذيبكم.

- أتخافون إن لم تعذبونا، أن ينقلب الأمر عليكم، وتعذبون أنتم؟

- أتتهمنا بالجبن؟

حاول فصل أن يلعق جراحه، ويرقق صوته، واصل كلامه:

- أنتم أخوة لنا.. أخوتنا وأصدقاؤنا يعملون معكم فى الشرطة، جنودا وضباطا.. كيف تعذبون مواطنيكم؟

رد الضابط المعذِّب ردا غريبا:

- أتريد أن تقدم لى «واسطة» من أقاربك أو أصدقاؤك فى الشرطة لأعفيك من التعذيب؟

أنا لا أقبل الواسطة!! أنا أعامل الناس سواسية بالعدل.. الكل لدى فى التعذيب سواء!

هذا المستوى من الحوار ضيع نكهته لدى فيصل.. الأهوال التى انصبت عليه وعلى رفاقه، مزقت أجسادهم، وأصابت أرواحهم بصدوع غائرة، هيهات أن تلتئم.

مازال عوده طريا، لم يتجاوز العشرين.. المعذِّبون يضربون العمال بوحشية، كأنهم يباشرون تمرينا رياضيا ممتعا، من أين أكتسبوا تلك الوحشية؟ هل ضربهم نظار المدارس على أقدامهم وأيديهم، فتقطرت الدماء منها، كما فعل النظار بى.. لكننى تقبلت تلك القسوة.. فسرتها على

أن القصد منها هو التربية.

يبدو أنهم لم يغفروا للنظار عنفهم، اختزنوا ذلك العقاب لينزلوه بالسجناء سياطا تمزق أجسادهم.. ولايقتصر على الأقدام والكفوف.. إنهم يستخدمون أدوات أخرى، يقصر عنها خيال المربين الأفاضل، الذين لم يجدوا أمامهم غير الخيرزانة والمسطرة!

هل بصق أهلوهم فى وجوههم لأنهم لم يتفوقوا.. ولم يستطيعوا تحويل العقوبة إلى تفوق، كما فعلت.. لعل استعدادهم لم يمكنهم من ذلك.. بلعوا الإهانة.. أبقوها فى جوفهم زمنا.. ثم قذفوا بها على المعتقلين، وامتهنوا ادميتهم هذا الامتهان الدامى.. لماذا لم ينتقموا فى حدود الإهانة التى لحقت بهم؟ لماذا لا يبصقون فحسب فى وجوه المسجونين؟

اتخذت ادارة المعتقل قرارا رحيما!! وضعت المعتقلين فى زنزانات انفرادية.. وما أدراك ماهى؟ عملية من التعذيب النفسى، والوحدة، لاتقل عن التعذيب البدنى، الذى صب عليهم.

هذه الهواجس السوداء، التى تخايلت لفيصل مفيدة! شغلته عن جراحات جسده، كانت تنفذ إليه من كوة الزنزانة الصغيرة، التى كان ينفذ منها كذلك ضوء النهار الكليل.

(٧)

وبينما كان فيصل يستعين بتخيلاته السوداء على نسيان جراحه، إذا بباب الزنزانة يركل بأحذية الحراس، المدعومة بحدوات كحدوات الخيل.. فتح الحارس الباب مناديا:

- إنت اسمك فيصل حسن؟

- نعم.

- اطلع بره.

ظن أنهم سيفرجون عنه، وجد أعضاء النقابة يقفون صفا خارج زنزانته.. لم يشأ أن يطيل النظر فى وجوههم، نوع من الدفاع عن النفس.. نفسه جريحة، لايود أن يثخنها بجراح جديدة، كان التعذيب واضحا فى وجوه زملائه.

سيقوا إلى ادارة المعتقل.. أعلن لهم نبأ آخر: سيقدمون جميعا للمحاكمة، اتفقت السلطة والمصنع على تلفيق تهمة خطيرة لهم: مخالفة القانون حيث قاموا بالإضراب والاعتصام فى المصنع.

وأسوأ من ذلك: أنهم خربوا المصنع، ودمروا بعض آلاته!!

الإتهام باطل، على الأقل فى شطره الأخير، جهزت إدارة المصنع، بمعاونة السلطة، شهودا زورا من مديرى المصنع، وبعض العمال «الخوافين» الذين هددوهم بالمصير نفسه إن لم يشهدوا.. وشهدوا!

وصدر حكم ظالم قاس: «الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات للجميع»!!

كان الحكم وسيلة أخرى، لإثارة الرعب فى الذين صدر ضدهم، وكذلك فى العمال الذين لم يقدموا للمحاكمة.

لم يجزع فيصل للظلم الذى تعرض له.. كان همه هو المهمة التى يحملها على عاتقه، لقد بث فى زملائه الاستهانة بالخوف، وعندما أوشكوا

على هزيمته، إذا برسل الرعب يزرعونه فى قلوبهم من جديد.. الأشغال الشاقة تهدم الحصون التى بناها ورفقاؤه.. هل تهدم البناء كله؟

وأصبح المائة وخمسون رجلا وصبيا، صرعى للخوف مرة أخرى؟ وإذا كان الرجال قد صدموا، ألا تغازل أحلام الفروسية قلوب الفتية؟ لا.. لا.. لابد أن تكون فى السويداء فتية ورجال!

انداخ فى وجدان قبس مضىء: ألا تمزق شعاعات الفجر سواد الليل؟ تقبل الأشغال الشاقة رضيا!! سيلتقى بزملائه فى حقل العمل، سوف يتحدثون، وسينتصر على الموات الذى كانت الزنزانة الانفرادية تنفثه فيه.. دارت أحاديث مع الزملاء عن الظلم الذى حاق بهم.. غشيته مسحة من الحزن، لمح الذعر فى عيون رفاقه، سببه أولئك الذين عذبوهم، واتهموهم، وحكموا عليهم، ازداد أساه: عاد الرعب، ضاع الجهد الذى بذله وزملاؤه فى مقاومته.

مرقت خاطرة غير عادية فى ذهنه، فى هذا الجو الكئيب، الروح والجسد مكبلان: أشغال شاقة بالنهار، ويأس كالح بالليل، محاربة الخوف تلح عليه: الوسط العمالى ربما يكون ليس كافيا وحده لهزيمة الخوف!! هناك قطاعات أخرى، لابد من نشر الرسالة ضد الخوف فيها، القوى العاملة كذلك محل شك من الأنظمة الحاكمة فى العالم الرأسمالى كله، إنهم ينظرون إلى العمال على أنهم مصدر للاضطراب.. ويعملون على التكتل ضد الحكومات، ومادامت هذه حليفة لأصحاب رؤوس الأموال، إذن العمال هم الخصوم، فلتسلط عليهم قوى القهر، لتقليم أظافرهم، فلا تصبح

مخالب تغرس فى جسد النظام، الأمية كذلك تنتشر بينهم وتضعف وعيهم، وتخيفهم من أصحاب الأعمال، الذين يملكون أرزاقهم بين أصابعهم.

هل يعتبر التعليم سلاحا أكثر فاعلية فى نشر الدعوة ضد الخوف، وقرر فيصل قرارا منيرا فى بيئة مظلمه: قرر استئناف دراسته، وإتمام تعليمه، من هذا المنبر يمكن أن ينشر دعوته عن طريق الكتابة أو المحاضرة.

ذكرته الفكرة بأحلام الفروسية، عندما كان صبيا.. لا مراء أن البذرة الرومانسية مازالت مدفونة فى وجدانه، يمكن للأحداث أن تواريها التراب زمنا.. لكنها توارت لتنبت وتورق، وتثمر ثمرا جنيا.

«كيف السبيل إلى ذلك ياأبا الفيصل؟».. أنت سجين.. الأشغال الشاقة «تهد حيلك» طول النهار.. متى ستذاكر وكيف؟ أين الكتب والمدرسون؟!

أجابه خياله إجابات بدت له مقنعة: العمل الشاق نهارا لم يمنع السهر أن يمتد بى أحيانا إلى مشارف الفجر، أتسامر مع زملائى.. إذن هناك طاقة يمكن استخدامها فى القراءة والمذاكرة.

من سيشرح لى هذه الكتب؟ لحسن الحظ ومن النادر أن يكون حسنا هناك من رفاقى السجناء اثنان متعلمان: أحدهما لديه الإعدادية والثانى حاصل على الثانوية.. على الأول يدرس لى المواد العربية، والثانى يشرح لى الرياضيات واللغات الأجنبية.

الحصول على الكتب ليس عسيرا.. المساجين يتمكنون من تهريب السجاير، والدخان المعسل، وأحيانا الحشيش والأفيون، داخل السجن.. وأنا سأهرب مادة ليست خطيرة كالمخدرات وهى الكتب.. صحيح أن سلطات

السجن تعتبر الكتب أخطر من المخدرات، إلا أن من يستطيع إدخال المخدرات إلى المساجين لن يتعذر عليه إدخال الكتب.

أخذ على الفور فى تنفيذ الفكرة، كانت طموحاته عالية، وضع خطة مدروسة.. سأمكث فى السجن خمس سنوات، سأسلك سلوكا طيبا.. سأرضى الحراس والرؤساء.. وأعامل زملائى بمودة حتى أولئك الذين يسيئون إلىّ!! سأحصل على الابتدائية فى السنة الأولى، وعلى الاعدادية فى السنة الثانية، وعلى الثانوية العامة فى السنة الثالثة.

اجتاز امتحان «الابتدائية» بسهولة.. والإعدادية بعد مجهود مضن.. خشى من الثانوية العامة.. لكن خشيته لم تبلغ الرعب الذى وضعت وزارة التعليم مناهجها على ضوئه.. ولا الهلع الذى يحدثه نظام القبول بالجامعات المبنى على درجات الثانوية العامة.. كان هاويا للتعليم، يريد استخدامه لأداء رسالته، لم يربط به مستقبله الوظيفى، كما يفعل آلاف التلاميذ.

على أن القلق من الثانوية العامة، لم يكن بعيدا عنه تماما.. لابد من رذاذات منه تصيبه: صعوبة المواد، ظروف السجن.. الشارحون للمواد.. إدارة السجن جن جنونها فى هذه السنة.. كانت أمينة فى مهمتها، زادت من الحصص التى لابد أن يقطعها كل سجين من صخور الجبل.. لا يهم إن كانت الصخور مفيدة أم غير مفيدة، الهدف هدم الجبل، و«هد حيل» المساجين.. تدهورت صحته، أصبح لايقوى على قطع الجبال، ولاحتى السهول.. أخذ إلى المستشفى الخاصة بالسجن.. كان حظه «بمب».

بعض الأطباء الذين كشفوا عليه يريدون أن يتعلموا طبا!! كان مرضه غريبا.. لايعرّفون كنهه. أصروا على معرفته، وصفوا حالته بأنها «مثيرة»!! دخلوا فى تحاليل، وكشوف أشعة لاتنتهى.. جربت علاجات وتشخيصات متعددة.. طال به البقاء فى المستشفى.. أمدته الراحة بقوة للمذاكرة للثانوية.. فرح بمرضه، شكر للأطباء صنيعهم، وحرصهم على التعليم، كما يحرص!!

أمضى شهورا فى المستشفى.. ذاكر فيها المقررات المطلوبة للامتحان.. الحصول على الكتب سهل.. فى دراج التمرجية، ودواليب الممرضات مكان متسع لها، هؤلاء بعضهم متعلمون خيرون، عاونوه.. أسهم بعض الأطباء فى شرح المواد الدراسية له، اعتقد بعضهم أن لديه متاعب نفسية، وأن معاونتهم له جزء من العلاج!!

وهكذا.. تعاطف معه العاملون فى المستشفى.. نظروا إليه كإنسان ظلمته الدولة وصاحب العمل، «فبركوا» له جريمة.. جريمته الحقيقية إنه ينافح عن نفسه وزملائه وعن حقهم فى الحياة.

نال الثانوية العامة.. أحدث ذلك رد فعل لدى الادارة!! أتاحت لسجنائها فرص الامتحانات لمن يريدون إتمام تعليمهم.. كان سمعة السجون فى الحضيض.. التعذيب الذى تباشره السلطات على المسجوني ضج مه الناس فى الداخل، والدوائر الديمقراطية، وأنصار حقوق الإنسان فى الخارج.

لم تمنحه الثانوية العامة شهادة تعليمية فحسب، بل أنسته صور الخوف

والقهر، التى تلبسها فى فترة اعتقاله، مكنته، ولو نظريا من أن يهرب بجلده من بؤرة من بؤر الخوف، الشرطة تصف مهمتها بأنها الأمن والأمان للمواطنين.. وأن السجون مؤسسات للتأديب والتهذيب والإصلاح.

لكن تبين أن الذين يحافظون على الأمن والأمان بين الناس ليسوا أنفسهم آمنين.. يروعون الناس فى منازلهم للقبض عليهم، حينما يجن الليل، ويرعبون الناس فى الشوارع فى وضح النهار، بعرباتهم المصفحة، وبعساكرهم المدججين بالسلاح.. رشاشاتهم وسناكيهم، تكاد تخترق صدور المارة، الغريب أن الاستعمار الذى علمهم فنون الشرطة ونظام الأمن عساكر الشرطة فى بلاده لايحملون سلاحا، ولايركبون عربات مصفحة، بل لاتكاد ترى جنديا واحدا للشرطة، فى أكثر الشوارع والميادين ازدحاما.

ما السر فى أن الناس هناك امنون.. وهنا مذعورون أهو وجود الديمقراطية هناك، وانعدامها هنا؟ أتكون حرية الفرد مقدسة عندهم، وممتهنة عندنا؟ هل هو الإنسان مكرم لديهم، الخدمات والمرافق جميعا مهيأة لاستخدامه، ومتاحة له، فى كل زاوية من زوايا مجتمعة.

القطاعان العام والخاص فى خدمته.. أيكون الدخل المرتفع يكفل له عيشا إنسانيا مطمئنا.. هل بلغت عناية الحكومة به أن أبعدت عسكرى الشرطة عن ناظريه، حتى يبلغ به الأمان ذروته، فمنظر الجندى يذكره بالسلطة!!

عرجت خواطره على حامى الأمن نفسه.. الجندى يطحنه التخلف تطيح الأمية بعقله.. تنهش الأمراض بدنه.. ينحطون بدخله، فلا يكاد يبلغ حد

الكفاف، أيمكن أن يشيع هذا الرجل أمنا أو أمانا؟ إن أمان الحد الأدنى من العيش لايتوافر له، فكيف يمنح المجتمع أمانا؟

علاقته بمن فوقه مبنية على الذعر.. فهو يخاف الضابط لأنه يمسك بعيشه بين أظافره، وعلى الرغم من المرتب المنحط، والعيش الزرى، إلا ان عمله وظيفة تقيه الجوع، والبطالة الكالحة خارج «القشلاق».. الضابط كذلك يمكن أن ينقل التعذيب أو الجلد للجندى لو أراد.. فهو «البعبع» الذى يثير خوفه داخل «المعسكر» وخارجه.

العسكرى يريد أن ينفث رعبه، فيفرغ همومه فى المسجونين.. لعله كما يقول الفلاسفة يريد أن يثبت وجوده: أنا أعذب الآمنين، إذن أنا موجود.

والضباط فى الدرجات المختلفة، يجمعهم فى علاقاتهم ببعض نفس المبدأ، وإن كان المبدأ هنا يدخل عليه تعديل طبقى، فهم من طبقة واحدة، يجمعهم «شرف المهنة».. والطبقة والمهنة، يخففان من الخوف نوعا.. تجعلانه خوفا معدلا!! فالضابط الصغير، سيصبح كبيرا فى يوم من الأيام.. هذا الرعب المركب فى العلاقات بين المسئولين عن أمن المجتمع، والذى يصبونه على السجناء قد تسلل إلى صاحبنا فيصل، وفت فى عضده.

ومع ذلك فقد لاحظ أن معظم المساجين، لايخشون السجن.. قد يخشاه بعضهم قبل دخوله، ولكنه وقد دخله، فإن السجين يأخذه قضية مسلمة.. ولايحدث له ذعرا.. لهذا لم يعد الخوف يداهمه بعد أن صدر الحكم ضده بالأشغال الشاقة، لقد انتهت فترة التعذيب إبان اعتقاله، وانتقل إلى فترة أهون كثيرا، هى فترة الأشغال الشاقة حيث لاتعذيب، ولكن عمل، وهو أمر

كريم رغم أنه شاق.

هاجساته تسرى معها نسمات مريحة، المجرمون لايرهبون السجن، حتى قبل حضورهم إليه فهم يتحدون القوانين القائمة.. ولو كانوا يخافونها ماأقدموا على مخالفتها.

كانت هاجساته منقذة له، غطت على عوامل الخوف الذى دهمته فى مصنع النسيج.. أتاحت له أن يعود إلى المهمة التى قطعها مع نفسه، وهى هزيمة الخوف، الذى ينقض على القيم الجميلة فى الإنسان، ويشوهها.

خطراته النفسية تخفف من جراحاته، تعاونه على أن يلعقها، استزاد منها.. تعجب من وسائل التربية والتهذيب التى تعرض لها وشاهدها.. وجد أن أساسها واحد فى السجن والمدرسة، الخلاف فى الوسيلة فحسب.. وفى درجة الوحشية التى يستخدمها «المهذبون» فى تربية الناس وتهذيبهم: نظار المدارس يستخدمون العصى الخيزران والمساطر فى عملية ضرب قاسية لتلاميذهم، مبدأ الضرب واحد، كان فى المدارس عنيفا.. لكنه لم يصل إلى مرتبة وحشية.. التلاميذ ضعاف صغار.. يضربون بقدر من القسوة يتلاءم مع سنهم، ومع المتاح من أدوات الضرب.. لكن المعتقلين وبصفة خاصة إذا كانوا عمالا أو سياسيين.. لابد أن تستخدم وسائل حديثة فى تعذيبهم ويجب أن ترقى القسوة إلى لون من الوحشية يتناسب وجرم هؤلاء الذين ينادون بحرية الإنسان، وبرفع أجره، ومستوى معيشته!! لعل الفارق بين التربية فى المدرسة والتأديب والتهذيب فى السجون هو فارق فى الدرجة

والوسيلة وليس فارقا فى النوع.

(٨)

اندملت جراحاته بحصوله على التوجيهيه فتحت الشهادة أمامه الطريق إلى التعليم العالى.. إدارة السجن تمضى فى الدعاية لنفسها، أقامت حفلا لحصول فيصل على الثانوية وهو يمضى عقوبة بالأشغال الشاقة.

دعت الإدارة للحفل الصحفيين المحليين والعالمين والكتاب والمثقفين، انهالت الأسئلة على فيصل: كيف وجد وقتا لاستذكار دروسه؟ من شرحها له؟ كيف جمع بين الأشغال الشاقة والتعلم؟ ماذا سيفعل بعد ذلك؟

أجاب على الأسئلة بسعادة مقيدة.. كانت الأسئلة شخصية.. متعلقة بالعمل الذى قام به، لم يسأله أحد عن الدافع الرئيسى خلف هذه المحاولة التعليمية.. فى الكلمة القصيرة التى ألقاها فى الحل، وكانت مفاجأة للحاضرين، قال:

كان دافعى لاتمام تعليمى هو محاربة الخوف.. وجدت الخوف يعربد فى أرجاء المجتمع: فى المدرسة والبيت والمصنع والشارع، وفى البوليس وسجونه، وفى كل مكان.. ويخرب فى عربدته قوى التقدم والإبداع فى الإنسان، لجأت إلى التعليم لعلى أجد فيه سلاحا، يجهز معى على الخوف: أيها الزملاء الضيوف.. اهزموا الخوف تهزمون التخلف والقهر، وتحررون بلدكم، وتمضون به على طرق التقدم.

لم يكن فى خطابه القصير هيابا.. لم يجامل الشرطة التى تكرمه.. لقد صدر أمر بالإفراج عنه، وسيغادر السجن فى اليوم التالى.. ولن يستطيعوا الرجوع فى قرارهم.

ابتهج كثيرا لخروجه من السجن.. لا لأنه خرج من دنيا العبودية إلى دنيا الحرية.. فهو يدرك أن المجتمع فى الخارج سجن كبير.. قد يكون أبشع من السجن الصغير، إذا استثنينا تعذيب المعتقلين، السجن الصغير مريح فى بشاعته، لكن المجتمع الكبير يشاركه البشاعة فى الخفاء..

إلى أين يذهب؟ الشوق لأسرته يهيب به أن يذهب إليها.. كان قد هجر عائلته، لايتنكر لها، ولكن حرصا على حملته على الخوف.

ماحدث له مخيف، يرعب أمه وأباه واخوته، لم يرد أن يرى الرعب فى عيونهم.. لكن لامناص من الذهاب إلى منزل أسرته.. ليس هناك ملجأ اخر.. أخفى عليهم ماألم به.. لم يرد أن يفتح على نفسه بابا لن يستطيع إغلاقه.. يريد أن يتفرغ لدراسته العليا.. وكذلك لمهمة محاربة الخوف.

استقبله أبواه، لأول وهله، بفرحة كبيرة، أعقبتها دموع، أستأنف حياته مع الأسرة، لكن حال الأسرة «لاتسر عدو ولا حبيب».. لابد أن يعمل ويستقل.. عيون أمه ترهقه، عيون ملأى بالخوف من عسف الحياة. نظرات قد تعكر عليه صفاء الحلم بمقاومة الخوف..

ذهب يبحث عن عمل، الأبواب والنوافذ موصدة فى وجهه.. عقوبة السجن بقعة سوداء لطخت حياته، خافت منه كل المصانع ومحلات العمل.. جرمه ليس عاديا.. إنه جرم عمالى ونقابى يثير فزع المشروعات

إنها ترفض تشغيل المسجون العادى، مابالك برئيس نقابة سجن لعمل نقابى، هو المطالبة بزيادة الأجور!!

كلت قدماه من اللف على أمكنة العمل.. أنقذه زميل كان مسجونا معه.. تردد فى أن يقدم له عملا فى مصنعه أول الأمر.. مصنع يدوى للنسيج، يعاونه فيه ثلاثة عمال، لحسن الحظ كان أحدهم قد ترك العمل.. العامل صاحب المصنع شهم، كان زميلا لفيصل أيام «العز» فى السجن.. لم يرد أن يتخلى عنه، رضى فيصل بأجر متواضع «بالقطعة» أى بعدد الأمتار التى ينسجها كل يوم.. الأجر كاف ليقتات منه ويجنبه نظرات أمه!! ويمكنه كذلك من شراء الكتب القديمة، من الطلبة الفقراء.. هؤلاء يبيعون كتبهم ليشتروا بثمنها كتبا قديمة أخرى من زملاء لهم فى الفقر.. وفى كلية الحقوق.. الكلية التى يعتزم دخولها والتى تعلم الناس حقوقهم!

ولكى لايلتق بأمه، ويتجنب نظراتها، كان يعود إلى مسكنه بعد أن تهجع فى فراشها، ويغادر البيت وهى مازالت تتقلب فى الفراش، استعداد لمغادرته.

التحق بكلية الحقوق، لم يخترها طواعية اختيارا كاملا، درجاته فى الثانوية متواضعة، قبلته الحقوق كأدنى كلية، تتقبل المجاميع الصغيرة، التى ترفضها الكليات الأخرى حتى التجارة والآداب.. وضع فاجع لكلية كانت تخرج «الوزراء» فى الزمن القديم!! كانت فى طليعة الكليات.. وكأن الدهر لايخنو على الناس فحسب، ولكنه يخنو على المؤسسات كذلك.

ومع ذلك كان راضيا بكلية الحقوق، الوحيدة التى تتناسب مع مهمة هزيمة الخوف.. هذه الكلية تبرز حقوق الإنسان وتدافع عنها، وتفقه الناس فيها، وهذا مايعمل من أجله، إذا عرف كل فرد حقه، وتبين دوره لقضينا على جذور الخوف، إن للإنسان حقا طبيعيا فى الحياة الآمنة، وفى الحرية، وفى أن يضع ممثليه الحقيقيين فى الحكم، وبذلك يتمكن من حكم نفسه بنفسه، ويحمى نفسه من الاستغلال والقهر، ويحصن نفسه ضد الخوف.

فرح بانتمائه إلى الكلية التى تحرر الإنسان من الخوف، لكن ظواهر معينة أخذت تتجسد أمامه لاتتسق مع رسالة هذه المؤسسة الكبيرة «لحقوق الإنسان»!! العميد معين من الوزير.. وليس مختارا بواسطة زملائه اختيارا حرا.. لذلك نجده ديكتاتورا يأتمر الجميع بأمره.

تحداه الأساتذة المعتدون بكراماتهم، انصرفوا من حوله.. نافقه الذين تسلل الخوف إلى قلوبهم.. أغدق العميد على أتباعه فى المحاضرات والمؤتمرات.. وسوق الكتب والسفريات..

نشأ فريق قاده الخوف إلى النفاق والارتزاق، ترك المتكبرون لينعموا بكبريائهم!!

تلك مأساة طبعت ملامحها على الأجيال الصاعدة من الأساتذة والمدرسين والمعيدين «الخوافين» يؤذيهم تمسك الشجعان بكبريائهم.. يلمحون فى عيونهم تصغيرا لهم.. يريدون أن يكبروا بأسلوبهم الخاص، ينشرون الخوف بين المدرسين والمعيدين.. يكونون حولهم حلقات من الأتباع، يلتمسون فيها عوضا عن كراماتهم المهدرة.

تصريف أمور الطلبة فى يد العميد وشلته، يتقرب الطلبة منهم، تنعكس عدوى الخوف والنفاق على سلوكهم، ويسود جو من الانتهازية نماه الخوف والمنفعة.. تسرب إلى الطلاب.. العميد تابع للسلطة، قبر النشاط الطلابى الحر تماما.. لايسمح إلا بالنشاطات التى تعاون فى أداء دوره لخدمة الذين عينوه.

هاهى الاجتماعات السياسية محظورة.. المناظرات ممنوعة.. لقاءات الطلاب مسيطر عليها.. الثقافة التنويرية غير مسموح بها.. ألعن من ذلك أن المناهج القانونية فى الكلية متخلفة.. تصور بطش القانون بالناس ليس فيها سطر واحد يدافع عن تحرير الإنسان من الخوف والفقر والقهر.. القانون هو الكابوس المرعب الذى يجب أن ينصاع له الناس.. لايناقشون عدالته، ولا من أصدره.. وماهى مصلحته الاقتصادية والسياسية.. وهل تتناقض مع مصالح الناس وحيواتهم؟

القانون الدولى يكرس «النظام العالمى الجديد».. ويصفق للقوة الوحيدة التى تحكمه.. قوة رأسمالية غاشمة تطيح فى العالم يمينا ويسارا.. تضرب وتخرب وتدمر شعوبا بأسرها.. وتحمى حكومات فاشية ظالمة حسب هوى العصبة التى تحكمها.. وتحلل كتب «الحقوق» هذا الوضع المزرى بحضارة الإنسان تحليلا محايدا دون أن تحلل الإرهاب فيه!!

والشريعة الإسلامية لايصور مافيها من عدل اجتماعى، وسماحة وتراحم، بل يركز فيها على العقوبات والحدود، التى ترعب الإنسان فى الدنيا والآخرة، وكأن الذى أعد المناهج يريد أن يجعل من الإنسان «أرنبا»

مذعورا، يلاحقه الرعب من كل صوب، وليس إنسانا شجاعا يكرمه الله

ابتأس صاحبنا ابتئاسا شديدا.. كان السجن أحب إليه من الجو الذى يسود فى الكلية.. على الأقل كان فى السجن سجناء شجعان.. يستمعون لقوله.. ويتوعدون الدولة الظالمة بعد أن يفرج عنهم!! وبغض النظر عن أنهم قد لايفعلون شيئا.. إلا ان استماعهم له مريح، يثير الأمانى فى وجدانه.

الجو الذى يحيط به فى الكلية مثبط للهمم.. الخوافون «المساحون للجوخ» هم المتصدرون.. بثوا فى ساحة العلم صورا من الفساد والخوف، المعيدون المذعورون يصححون مجانا أوراق الامتحان الخاصة بالعميد وفريقه من الأساتذة، الذين يضعون أجر التصحيح كاملا فى جيوبهم.. ويلقون المحاضرات بدلا منهم، كذلك تناثرت أحاديث عن فساد وسرقات.

التقى فيصل بفريق من المتدينين المتشددين.. اشتد وجله، رغم كونه محاربا للخوف.. أراد أن يحادثهم عن الخوف، الذى تسبب فى تأخر البلد، عاجلوه بجرعات من الخوف أشد وأنكى قال أحدهم:

- لابد من تطبيق الشريعة الإسلامية، بما فيها من حدود، حتى نعالج الفساد.

ورد عليه:

- أنت ستدخل عنصرا جديدا يشيع الرعب بين الناس.

- هذا كلام الله، يجب تطبيقه.

سكت المتدين برهه، ثم أردف:

- أتريد الكلام الجد، يجب أن يرعب الإنسان حتى يستقيم سلوكه، ويقضى على الفساد.

- لكن الله يريد لكلامه أن يطبق بحكمه.. ألم تر إلى عمر بن الخطاب بوقف تطبيق الحدود فى عام المجاعة؟

- هذا فى عام المجاعة؟

- نحن فى أزمة اقتصادية طاحنة تمسك بخناق الناس، فهى التعبير الحديث عن المجاعة بل هى أشد وطئا.

ورجع المتدين إلى موضوع الخوف، فقال:

- كيف تحارب الخوف، وكلنا يخاف الله.

- هل تعدنى بأن تكون حليما.. وأن تجادل بالتى هى أحسن.

تردد المتدين قليلا ثم قال:

- أعدك.

- عظيم.. منطقك منطق الشيخ، الذى كان يخطب فينا الجمعة فى مسجد القرية.. لقد زرع فينا الرعب من عذاب القبر.. صور الملكين اللذين يقفان على أكتافنا فى القبر، يحملان المرازب الثقيلة لتكسير عظامنا.. وصور جهنم مملوءة بالأفاعى، وبالوحوش التى تنفث الحمم من خياشيمها.. فتحرقنا وتشوى جلودنا.

- أنت تنكر عذاب القبر، وعذاب الآخرة.

- أنا لا أنكر شيئا.. ولكننى أشير إلى أن هناك تشويه للعقوبة التى وضعها الله للعصاة.. وتصويرها تصويرا بشعا، يرعب الناس.

- لابد من إرعاب العصاة والكفار.

- أدع إلى سبيل ربك بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

- وإذا لم تفلح الحكمة والموعظة الحسنة، لابد من إرهاب الكفرة.

- لكم دينكم ولى دين.

- ....

- وددت أن أضيف عنصرا آخرا، بالغ الأهمية.. أعتقد أنه أعلى من العذاب، وأرقى من التخويف، هذا هو عنصر السماحة والحب، الذى يطبع العلاقة بين الخالق والمخلوق، ألا ترى أن الإنسان الذى يعبد الله على حب أنضل كثيرا من الإنسان الذى يعبده عن خوف ورعب؟

- هذا ينطبق على المتصوفين وليس على الناس العاديين.

- ألا توافق على أن الإنسان يمكن أن يوجه لحب الله ويعبده بإيمان ورضا، لا عن قهر وخوف؟ الإنسان الخائف لا إرادة له، والله يريد لخلقه أن يعبدوه عن قناعة وإرادة.

اتفق فيصل وقتا طويلا مع المتدينين وغيرهم، بذل جهدا ملحوظا، فى هذا الجو الشائه من حوله، اصطدم بعقليات متينة صلبة.. لاتقبل تفسيرا إنسانيا كريما لكلمات الله.. لكنه لم ييأس.. واصل حواراته مع الشباب من حوله، أيا كان انتماؤهم السياسى.

سعد إذ يرى تجاوبا مع أفكاره ينمو على استحياء، اقترح زميل له عليه أن يكون جماعة ثقافية، يذيع أفكاره من خلالها، تقدم بالاقتراح للعميد.. رفضه.. توقع هذا الرفض، العميد والوزير الذى عينه يخاصمان الثقافة

وبصفة خاصة فى الكليات وميادين العلم.

اقترح عليّه زميل آخر أن يتحايل على لفظ الثقافة، ويكون لجنة للرحلات، وقبل الاقتراح!! أفلت بذكاء من رفض العميد، الذى تقدم بالطلب ليس هو بل زميل له.

(٩)

قامت جماعة الرحلات على عناصر طلابية واعية، طالما أن مهمتها هى تنظيم الرحلات فستكون بعيدة عن أعين العميد وأعوانه، يمكن للطلبة أن ينطلقوا فى حواراتهم، ماشاء لهم الانطلاق، اشتهرت الجماعة بين طلبة الجامعة.. جذبت الطلاب من كل فج.. رحلاتها ممتعة تزداد متعتها بالمعرفة والثقافة.. لم تكن زيادة المواقع التاريخية والجغرافية ترفيهية فسحب.. كانت تثرى عقول الطلاب وتنعش آفاقهم.

الحوارات تتأقلم مع المكان: ربطت بالعظمة التى تجسدت فى الآثار التى أبدعها الأقدمون: أهرامات، معابد، تماثيل، نقوش.. لم تبن الأهرامات عن خوف أو سخرة، أو إلهاب لظهور البناة بالسياط.. كما فعل الخديو إسماعيل، والفرنسى ديليسبس بالذين حفروا قناة السويس، هذه الآثار الشامخات، لايمكن أن تكون نتيجة قهر أو رعب صب على العاملين.. مافيها من فن باق على الزمان، دليل على عظمة البناة وشجاعتهم، وإيمانهم بما يفعلون، كان الملوك المقيمون فى هذه البنايات المعجزة آلهة فى الوقت نفسه، لم تقم العلاقة بينهم وبين رعيتهم من البنائين على الرعب، وإلا

ارتعشت أيدى البناة، وارتعش معها البناء.. وماكان بمستطيع أن يتحدى الزمن.. إن الأشكال والألوان وصور الجمال التى أبدعها الفنانون لايمكن أن تصدر إلا عن إرادة حرة تحلق فى دنيا الخيال والجمال، ومن العسير على نفس كسيرة مذعورة أن تستطيع ذلك التحليق، لم يقتصر الأمر على الفراعين، بل طبقت الفكرة نفسها، حين زاروا الآثار القبطية والإسلامية.

تقاطر طلاب الجامعة على جماعة الرحلات بكلية الحقوق، وانتشرت الدعوة لهزيمة الخوف بينهم، عن طريق مرغوب فيه هو الرحلات الجامعية.

وعندما تنتشر فكرة بين الشباب لايتركونها تتطور فى هدوء.. الشباب يدفع الأمور إلى منتهاها، دعيت جماعت الرحلات بالجامعة إلى اجتماع مشترك بكلية الحقوق، بحجة التنسيق بينها، وكان الهدف الحقيقى، دحر الخوف على مستوى الجامعة كلها.

ودعى عميد الحقوق، وفرقته، وكذلك الأساتذة الرافضون للخوف، فوجىء العميد وصحبه بالتجمع الكبير، لم يستطيعوا استعداء السلطة لقمعه، لهذا حضروا مكرهين لا أبطالا.

استهل فيصل الاجتماع قائلا: لعلكم تشهدون مافعل الخوف بنا، نشر بيننا الجبن والنفاق.. وتفشى بسببهما الفساد والسرقات، وساد الشعار «من خاف سلم.. وكسب»!

وتلاه مندوب كلية الهندسة: الخوف يقلب الإنسان عبدا.. ويهدم فيه أعظم مامنحه الله، وهو إنسانيته، علينا التخلص من أولئك الذين ينزلون فى قلوبنا الرعب، ويشوهون فينا إنسانية الإنسان.

وجاء دور مندوب كلية التجارة: القائد عندنا، كرب العمل، تتصاع له الشخصيات المهزوزة، خوفا وطمعا.. الملتفون حوله يحظون بسوق كبيرة لكتبهم، ويحتكرون بيعها للفرق الكثيرة العدد.. ويجنون أرباحا يجمعونها من الطلبة الفقراء، أبناء الكادحين.

وقال مندوب الطب ضاحكا: لقد ذكرنى زميل التجارة «بالوسية».. فالوسية موجودة حقا عندنا: ابن العميد، وابن الوكيل، هما دائما الأول والثانى على التوالى!!

الغريب أن ابن لعميد نال درجات نهائية تماما، فى جميع المواد.. منحه الأساتذة الخوافون والمنافقون هذه الدرجات النهائية، لعل هناك اتفاقا صريحا أو ضمينا بينهم: أن يمنح ابن العميد الدرجة النهائية وأن ينقص من ابن الوكيل درجة فى بعض المواد، حتى يأتى ترتيبه الثانى!

وتحدث مندوب كلية العلوم: «تسببت شجاعة بعض الأساتذة واعتدادهم بعلمهم وذواتهم فى تأخر البحوث العلمية عندنا!! المجموعة التى التفت حول العميد، كانت أقل علما: وزع العميد الآلات والمعامل والمعدات الحديثة التى تستخدم فى تقدم البحث العلمى، عليهم.

وترك الأساتذة الأكثر علما، يعانون جزاء علمهم وتعاليمهم!! تدهور العلم.. تولاه أناس يجيدون الجلوس حول لعميد.. ولايجيدون الجلوس أمام الأجهزة العلمية الحديثة.

انتهت الكلمات وبدأت الأسئلة: سؤال إلى عميد الحقوق: كتابك يدرس ويباع لطلبة السنة الأولى، التى يبلغ عددها أربعة آلاف طالب، إذا

أضفنا المتسببين، وتبيعه بثلاثين جنيها.. عبء فادح على الطلاب الفقراء الذين لايجدون مايسد رمقهم.. ماالفرق بين عملية الاستغلال هنا، ونظيرها فى الوسايا الإقطاعية.. أتعتبر كلية الحقوق وسية عامة بينما الوسايا الإقطاعية وسايا خاصة؟

انتفض العميد واقفا: واندفع نحو الباب قائلا:

- أنا لاأرد على هذا السفه الذى يتحدث به الطالب.

لم تكن مغادرة العميد للاجتماع مجرد احتجاج على الإهانة التى وجهها الطالب إليه، لقد ذهب للاتصال بالسلطات قبل أن تتصل الشرطة بها، أراد أن يبلغها عن التجمع، ويقترح اعتقال الداعين له.

كانت السلطات أكثر حكمة من العميد، إنها تدرك أن هذا تجمع طلابى يضم الجامعة كلها.. وأى إثارة ضد الطلة، قد تكون ضارة، نصح العميد أن يبقى هادئا، إلى أن تصدر له تعليمات.

قدمت السلطة اقتراحا ذكيا، هو إلغاء الإنفاق على جماعة الرحلات، بهذا يتوقف نشاطها، لن يستطيع الطلاب دفع التكاليف العالية للرحلات.

وعقدت الجماعة لقاء، قدم طالب اقتراحا لايقل ذكاء عن السلطة: يدفع الطلبة القادرون جزءا أكبر من النفقات ويتحمل الآخرون جزءا أقل.. ويكتفى مؤقتا بالرحلات غير المكلفة، ومضت الرحلات إلى غاياتها والحوارات إلى أهدافها، لم تستطع السلطة «الحكيمة» منع رحلات الطلاب، ولا حواراتهم.

(١٠)

لاحظ فيصل، فى أحد الاجتماعات أن هناك فتاة تطيل النظر إليه: غصن فارع، عينان فى لون العسل، بشرة ناعمة كأوراق الورد.. عرف أن الفتاة طالبة فى كلية الطب، اسمها زينة.. تشارك فى الرحلات جميعا، تشهد كل اجتماع، تسهم فى كل حديث يكون طرفا فيه!!

فى أول الأمر كان مشغولا بتنظيم الرحلات، فسر نظراتها بأنها تشكره على جهوده، لكن اصرار الفتاة على التحديق فيه جعله يمعن النظر فى ملامحها، هذه القسمات ليست غريبة عليه: وجه أليف أعرفه.. من هى؟

لم يكن الأمر سهلا.. وجهها يذكره بلمحات من «فينوس» آلهة الجمال عند الإغريق، لكن عينيها يتجمع فيهما عسل الشرق كله!! الأحداث التى تعرض لها جعلته لايجول ولايصول فى عالم النساء.. لقد مزقوا فروسيته الصبية، وأحلامه الشابة.. وغبشوا الصور الرومانسية لأبطال الفولكلور، استغرق فى كفاحه ضد قوى الرعب.. لم يبق فى خياله مجال واسع أو ضيق للرومانسى أو للنساء.

لكن هذه الفتاة أيقظت عواطفه التى طال بها الرقاد، أنعشه قوامها المتشق حينما تتهادى.. أطربه صوتها الريفى الجزل، عندما تشترك فى المناقشات، ازداد اعجابه بها، إذ وجدها فارسة تعلن الحرب على الخوف، وعلى الرغم من قيادته للمقاتلين للخوف، فقد أدركته رعدة تشبه الخوف!! كان مصدرها نهداها النافران.. فقد تخيلهما من خلف الرداء الحريرى ينبضان بالحياة، ويثيران الأمانى، أصابه ذعر لذيذ، لم يجفل منه.. استسلم له، هذا لون من الخوف يمكن القتال معه، وتسهل هزيمته.

ومع ذلك لم يجرؤ أحدهما على مكاشفة صاحبه بما يدور فى رأسه، لم يستطيعا ترجمة النظرات الساخنة إلى نجوى.. منعمها الحياء.. مازالا ريفيين رغم التعليم والكفاح. هذه الجسارة التى يشيعانها بين الطلاب تتلاشى حينما يجتمعان. قال لنفسه: أنت الرجل، عليك اتخاذ الخطوة الأولى وقالت لنفسها: لماذا لاتأخذين المبادرة.. تراجعت وتراجع!!

فى رحلة من الرحلات، أقيم حفل للتعارف.. قدمت نفسها: اسمى «زينة محمد»، عمرى عشرون سنة.. من الشرقية.. من قرية مجاورة للزقازيق.. طالبة فى كلية الطب.

انتابته رجفة.. أعادت إلى وعيه تاريخا بأكمله.. هل هذه زينة؟ إنها هى!! فتاته التى جلس إلى جوارها على حافة الغدير.. وجاء والدها ولطمها على خدها.. رافقته صورة وجهها الصغير المذعور زمانا طويلا.

وجهها الآن صبوح.. اختفت منه مسحة الرعب التى غشيته منذ عشر سنوات.. أهذا معقول؟ هذا الجمال كله، وهذا القوام الممتشق لزينة، صديقتى الصغيرة؟ لابد أن أبادر بتحيتها، لا.. الفضل أن انتظر حتى تعرف اسمى، لأرى وقع المفاجأة عليها!

قدم نفسه: فيصل حسن، من قرية مجاورة للزقازيق، ٢٣ سنة.. كلية الحقوق.. كادت تقفز من مكانها.. هذا هو فيصل الذى لقيته صبيا على غدير الحب والرعب!

بعد انتهاء الحفل، هرع إليها، وهرعت إليه: زينة!! فيصل.. بعد فرحة اللقاء قالت:

- لقد عرفتك منذ اللحظة الأولى.. ومنذ أول رحلة اشتركت فيها معكم إلى أسوان، منذ بضعة أشهر.

- وتسكتين هذه المدة؟

- كنت خايفة من أبوى؟

- مش معقول، صحيح؟

- لا.. أنا أهزل معك.. أنا الآن لا أبالى بشىء.

- هذا عظيم.

- لاتفهمنى خطأ.. التقاليد الشعبية القوية التى لاتتعارض مع التقدم أؤمن بها ولاأخشاها.

- أؤيدك.. إن التقاليد الجيدة تراث تملكه الجماهير.. ونحن جزء من هذه الجماهير.

- فى العلاقة بين الرجل والمرأة من التقاليد أن يبدأ الرجل الخطوة الأولى، وقد كنت انتظر منك أن تأخذ المبادرة.

- اسمحى لى بالقول بأن هذا ليس جزءا من التقاليد، هذه عادة.. وأرجو ألا تعترفى بها، ربما يقلل ذلك من مكانة المرأة، فقد تعودنا نحن الرجال على أن نأخذ المبادرة فى كل شىء.. وكأن المرأة ليست لها شخصية مستقلة، وحقوق مماثلة للرجل.

- أنت تجر رجلى إلى هذا الحديث الجاد.. أنا فرحة بلقائك.. هاأنت ترى أننى آخذ المبادرة فى إظهار شعورى.

- ماأسعدنى بك، وبمبادرتك.

- ماذا حدث لك منذ ذلك اليوم المشهود على حافة الغدير، يوم اللطمة على وجهى؟

- وقعت أحداث كثيرة.. لعلك تعلمينها.

- منذ انقطاعك عن المدرسة الابتدائية، لم أدر عنك شيئا.. فقد اختفيت من القرية.

- هل نستطيع أن نؤجل الحديث عن حياتى، فهى مليئة بالشجن، وسوف أقصها عليك مستقبلا.. إننا لم نلتق لسنين طويلة.. دعينى أعيش لحظة اللقيا!!

- أوافق.. لكنك لم تسأل عنى طيلة هذه المدة.

- هذا سيعود بنا إلى الحديث عن العوائق التى منعتنى من السؤال عنك.

- آه.. معك حق.

- إننى لم أصدق أنك «زينة».. أيمكننى أن أهزل معك؟

- تفضل.

- لم أصدق أنك زينة «المفعوصة».. بتاعة الأرياف؟

- يعنى حضرتك اللى كنت «الزير سالم»!! ماانت كنت مفعوص برضة.

- من أين أتيت بكل هذا الجمال.. وكيف بلغ قدك هذا السموق؟ أقول لك الحق وماتزعليش؟

- خد راحتك.

وانت سنك عشر سنين، لم تكونى تبشرين بهذا الحسن الرائع، ولم يكن

العسل قد سكب لونه كله هكذا فى عينيك.. ولا الورد قد تدفق كثيفا هكذا فى خديك.. لمَ يكن قوامك قد امتشق وأثمر هذه الثمرات الجنية.

- أنت مازلت لست سهلا.. فقد كنت مراوغا وأنت صغير.. ولاأدرى أيطربنى غزلك الآن، أم يغضبنى هجاؤك لى وأنا طفلة.

- أنسيت أننى أهزل معك.. لا.. لا.. أنا أهزل فحسب بالنسبة لك كطفلة، ولكننى جاد جدا اليوم.. صورتك كانت تغزلنى بين الفينة والفينة.. وكنت فى حاجة إليها، لتوحى لى بالراحة كلما قست بى الأيام!!

- أنا كذلك لم أنساك، رغم الذعر الذى أصابنى منذ لطمة والدى، الغريب أن ذكراها كانت تخيفنى وتسعدنى فى الوقت نفسه.

- يابنت؟

- لكنك لم تحدثنى عن حياتك العاطفية، دع الآن حياتك الشاقة، رعشة أصابته، حينما سمع كلمة «الشاقة» ذكرته بالأشغال الشاقة، لكنها لاشك لاتعرف عنها شيئا، قال لها:

- ليس فى حياتى أية فتاة.. حياتى كما سأقصها عليك لم تكن تسمح بوجود فتاة فيها.. كانت هناك أحداث جسام.

- والحب ليس جسيما؟

- الحب جسيم.. لكن حينما يحدث، وهناك فى هذه الدنيا من فرض عليه أن يحرم من الحب وجسامته!! الحياة تقسو أحيانا، فتحرم البعض من هذه العاطفة المقدسة.

- أنا أصدقك.. هل أهل أنا أيضا معك؟

- طبعا!

- أنا أشكر لحياتك القاسية، أن منعت أية فتاة، من أن تقتحم عالمك حياتك.

- مادمنا فى مجال الهزل، فأنت تفرحين فى مصايب الناس!

- بس انت كمان حظك بمب!

- إزاى؟

- أنا كذلك، رغم أن حياتى كانت سهلة، لم يغز قلبى أى إنسان.

- جميل.

- هل تدرى أن صورتك ونحن على شاطىء الغدير مازالت عالقة فى خيالى!

- وكيف ترين صورتى الآن؟

- هل أصارحك، ولاتغضب منى، أنت كنت أحلى وأنت صغير، الآن «بقيت» خنشور!

- لاحظى رغم حبى للدعابة، فأنا حساس، أسهمت الحياة فى إرهاف إحساسى.. اعملى معروف قولى كلام كويس!!

- الله.. أنا بهزر معاك، زى ماكنت بتهزر معاى.

- طيب نبقى خالصي.. إنما أننت بالئيمة، قلبت الصورة.. أنا أشيد بجمالك الآن وأقلل منه هازلا وأنت صغيرة وأنت تهونين من شكلى الآن.. الآن هو المهم.. أنت الكسبانة.

- أصل أنا اغتظت منك لأنك لم تحادثنى فى الرحلات السابقة، طيب

هناك سؤال: هل كنت تعرف أنى زينة، ولم تحادثنى؟

استنكر فيصَل هذا السؤال قائلا:

- لا، هل هذا معقول؟

- إذا كنت لم تعرفنى، فالمصيبة أعظم!

- كنت مستغرقا فى تنظيم الرحلات المقاومة للخوف.

- لست وحدك فى المعركة.

- أنا سعيد إذ أعرف ذلك.

- بدأت ثورتى على الخوف منذ صفعة أبى، كان أثرها حاسما، لم أجرؤ على أن أحادث أى ولد أو رجل منذ ذلك التاريخ!

- إننى أكره الخوف كراهية عمياء، لكننى أدين له بذلك الجميل، حافظ عليك نقية خالصة.

- هذه أنانية.

- أنانية مرغوب فيها.

- مازلت تصر على الانتصار فى المناقشة، كما كان العهد بك صغيرا.

- فى مجال علاقتى بك، أحب دائما أن أنتصر.. وأن أكون أنانيا فى الحب!

- أنت تتحدث عن الحب بسرعة، وقبل الأوان.

- ارتبطت بك بعاطفة نقية لمدة عشر سنوات.. وهذا وقت كاف لانضاجها.

- كنت أود أن أحدثك عما جرى لى بعد الخوف الذى سببه لى والدى،

- قبل أن ألقاك، كان أحلى موضوع لدى، هذا النضال ضد الخوف، ولكن بعد لقائنا اليوم، أصبح هناك حديث آخر يشاركه الحلاوة.

- لاتخلط بين الأمرين، هزيمة الخوف.. وهى رسالة إنسانية هامة، والعلاقة بيننا - بفرض قيامها - وليست من النوع الأول.

- «أنا لست سهلا»، كما تقولين.. هناك فارق بينهما، ولكنهما مندمجين، فى نظرى، يغذى أحدهما الآخر.. جميل أن يجد الإنسان صديقا أو شريك حياة مؤمن بما يؤمن.. إننى أنظر إلى علاقتى بك - ولست متعجلا - بهذه النظره التى تضم عنصرين هما أغلى مالدى: الحب ومقاومة الخوف!

أراد أن يعبر لها عن عاطفته المزدوجة، وأن يجمع كعادته بين الجد والفكاهة فقال لها:

- إننى حينما أذكر يوم الغدير أضع يدى على خدى!

حينما بلغ الحديث أجله، سكت الشابان، وبدأت نظرات اتقد فيها الحب، وخبا فيها الخوف، امتد الصمت بينهما إلى أن أوغل الليل ليقترب من الفجر، كان عليهما أن يذهب كل إلى مضجعه، فالرحالة سوف يستيقظون مبكرا، ليبدأو يوما جديدا.

(١١)

فاجأته زينة بحصيلة وافرة من كفاحها ضد الخوف، بدأ منذ اللطمة على وجهها الرقيق.. وجدت زميلة لها تقف مع شاب فى مكان قصى، خلف جدار، بعيدا عن الأنظار.. فرحت إذ سوف تشهد لوحة جميلة يرسمها الحب، وتلونها العاطفة بألوان خلابة.. لكنها صدمت بما رأته فتاة متوترة.. تقول لفتاها كلمة.. ثم تلتفت يمينا ويسارا.. وتنظر لأعلى وأسفل.. خوفا من أن ينشق الجدار عن إنسان يكشف أمرهما.. كيف يمكن أن يجمع القلب بين الحب والرعب؟!

ازداد توتر الفتاة حينما رأتها تلعثمت، وكأنها ارتكبت إدا.. حزنت زينة، إذ تنقلب العاطفة الرقيقة المقدسة رلى ذعر يمزق قلوب الأحبة، أدركت أن وجودها غير مرغوب فيه، إلا أن الخوف فى عينيهما جعلها تتدخل:

- أتسمحان لى بكلمة.

أجابت الفتاة:

- تفضلى يازينة.

- أنتما متوتران.. لماذا؟

وردت الفتاة:

- أنت تعلمين مادرج عليه مجتمعنا من النظر إلى العلاقة بين البنت والولد.

تذكرت زينة اللطمة على خدها، تحسست وجهها، ومضت تقول:

- هل ترتكبان جريمة؟

- كما ترين.. نتبادل حديثا بريئا.

- إذن، لماذا تخافان؟ كيف تنعمان باللقاء، وأنتما على هذه الحال التى يرثى لها.

وقال الولد:

- هذا ماقلته لصاحبتك، ولم تستمع لقولى.

- لكن دعانى أوجه اللوم لكما.. لقد اخترتما مكانا، موضعا للشبهه.. وكأنكما تخفيان فعلة شعناء، الصداقة أو الحب مشاعر نبيلة، لايمكن ممارستها فى الظلام، وخلف الجدران.

وقالت الفتاة:

- والمجتمع والأهل؟

- نحنُ الذين نكون المجتمع، ونطبع سلوكياته، لماذا لايحادث الشاب الفتاة فى وضح النهار بدلا من «البدروم» و«السطوح» و«بير السلم».. لماذا لاينظر إلى الحب، كعلاقة مقدسة، ولايعامل كأنه سرقة أو اغتصاب؟!!

سكتت زينة قليلا ثم قالت:

- أنا أقترح عليكما أن تكملا هذا اللقاء وسط الناس.

وردت زميلتها:

- هل تضمنين لنا ألا نكون موضع هجوم أو سخرية؟

- سلوككما هو الذى يضمن حمايتكما.

بدأ الشابان علاقتهما فى العلن.. سار على الدرب آخرون.. انتشر الحب، واختفى الخوف، الحب الحقيقى يشيع السلام والطمأنينة فى قلوب المحبين.

حينما يكون فيصل سعيدا حقا، فإنه يلجأ إلى النكتة للتعبير عن مشاعره.. قال لها:

- يظهر إن «الكف» بتاع أبوك جاب نتيجة كويسة!

وشاركته القفشة:

- تماما زى علقة القمار!

- نبقى خالصين.. قولى كمان قولى.

- لن أقول!! أنا عارفة أنك تسعد بمثل هذا الحديث.

- الحقيقة أنك أثرت معنى جديدا.. قلت إن سلوكيات الناس، هى التى تنشر الخوف بينهم.. سلوك الأحبة هو الذى يولد الخوف أو الطمأنينة.

- أشكرك.. أنت تغرينى على المزيد.

- ياريت.

- البنت مثلا هناك فكرة خاطئة عنها: انها أضعف من الرجل.. هناك بنات أقوى من الرجال.. ولكى نلغى هذه الفكرة، اقترحت على ناظرة المدرسة الثانوية للبنات، التى كنت فيها أن تدخل رياضة الكاراتية فى تدريب البنات.

وكانت لى زميلة تخاف من الشباب كثيرا، تصرفات بعضهم قوت عندها ذلك الخوف.. كنت أتمشى معها فى الطريق العام.. تعرض لنا شابان.. تلفظا بألفاظ بذيئة.. وتبعانا فى معاكسة منحطة، تصدت زميلتى لأحدهما، كان أكثر وقاحة، نفذت فيه دروس الكاراتيه، سقط على الأرض، وفر زميله هاربا، تبعه المضروب مداريا وجهه خجلا.. وانتشرت

القصة وواستقام سلوك الشباب!

- لكن هذه طريقة تناقض فلسفتك فى محاربة الخوف، الشباب الآن يخشون «معاكسة» البنات خوفا من الكاراتيه!

- هذه وسيلة تصلح مؤقتا، فى فترة الانتقال إلى أن يسرى السلوك المهذب عن قناعة لا عن خوف.

(١٢)

بينما كانا يتساقيان حديث الود والنضال ضد الخوف اقتحم مجلسهما ملتح!! تتهدل لحيته على صدره، ويتطاير الشرر من عينيه، ماكان لهما أن يتهماه بأنه متطرف أو إرهابى، قد يكون متدينا عاديا، هو أمر مألوف بين بعض الشباب، لهذا لم يرهبهما منظره.. ولا ظهوره المفاجىء.. كانا يجلسان متباعدين ليس هناك مايخشيانه.

لكن الملتحى بدء بدءا عدوانيا:

- كيف تختليا ببعضكما هكذا؟

وأجاب فيصل:

- هذه ليست خلوة.. ولكنه مكان عام، يؤمه من يشاء حتى أنت!

- لكننى وجدتكما وحدكما.

رد فيصل ردا فاجأ الملتحى:

- أنت لاتعلم.. إن الله معنا.

لم يدر الملتحى كيف يعقب، إلا انه تذكر حديثا: «مااختلى رجل بامرأة،

إلا وكان الشيطان ثالثهما».

- هذا الحديث، إذا كان صحيحا، يتوقف على هدف الرجل والمرأة من اللقاء.. ولهذا فقد يكون ثالثهما الله، وقد يكون الشيطان، وقد تكون أنت!

- ولكن المرأة شيطان فى كل الأحوال!

وتصدت زينة للرد عليه:

- من قال لك هذا؟ السيدة خديجة، والسيدة عائشة وغيرهن.. هل كن شياطين، أم أسهمن فى نشر الإسلام؟

- هؤلاء هن نساء النبى، حذار من إدخالهن فى الحوار.

قال الملتحى هذه العبارة، وقد احمرت عيناه، واهتز شعر لحيته، فيصل وزينة لم يعبأ بمنظره، حتى لو كان إرهابيا، انهما يقاتلان الخوف أيا كان مصدره، وعلى الرغم من أن الحديث مع الملتحين قد لاينتهى إلى نتيجة إيجابية إلا أنهما لايريدان أن يختصماه!

لا اعتراض لهما على عقيدته السياسية، فليعتقد بما يشاء، وهما كذلك يريدان للرحلة أن تحقق الهدف المرجو منها، لابأس إذن من الاستمرار فى حوار موضوعى مع الملتحى.. قال فيصل:

- إذا كنت ترغب فى أن ندخل فى حوار موضوعى هل تعدنا أن يكون الفيصل بيننا هو الآية الكريمة: «وجادلهم بالتى هى أحسن»؟

تردد الملتحى لحظة، ثم قال:

- أعدك.

- هذا كسب.

وبدأ الشابان يعتقدان بأن الحوار مع هذا الملتحى مهما كانت نتيجته خير من القنابل المحشوة بالمسامير والرصاص، والمتفجرات التى يستخدمها الإرهابيون فى هجمتهم الشرسة على المجتمع، واصل فيصل الحديث:

- من أى فصيل أنت؟!

تردد الملتحى، فعاود فيصل الحديث:

- لا أقصد التنظيم الذى تنتمى إليه، أقصد هل أنت من المعتدلين أم المتطرفين؟

وأجاب الملتحى:

- ليس بيننا معتدل ومتطرف.. كلنا سواء!

- هذه إجابة أمينة.

- ماذا تقصد؟

- أعتقد أن كل المنتمين لهذه الجماعات فكرهم واحد، وأهدافهم واحدة، وبذلك فمن يطلق عليهم الناس «الإرهابيين» لايفترقون عن «المعتدلين».

- نعم.. لكن ماذا يقصد بالناس؟

- جماهير الشعب، أو الكافة، كما تقول أدبيات الشريعة.

- هذه الجماهير لاتصلح للحكم.

- هل تعتبرها جماهير جاهلة؟

- إنها ليست جاهلة، إنها جاهلية! إنه مجتمع كافر، يجب أن يجتث من أساسه.

- أتقصد أن يقتل الناس الكافرون؟

- نعم.. وكل الناس كافرون!

- لهذا.. فعندما تحصد قنابلكم ورصاصكم أرواح الأطفال والشيوخ والنساء، فهذا فى نظرك مشروع؟

- أجل!! إن الغاية المقدسة وهى إقامة مجتمع إسلامى، تحكمه حكومة إسلامية تبرر الوسيلة.

- لكن هؤلاء برءاء لم يقترفوا ذنبا؟

- هذا هو الثمن الذى يجب أن يدفع لإقامة حكومة إسلامية.

- لكن هذا يخالف القاعدة الإسلامية التى تحرم القتل «من قتل نفسا بغير نفس ولا فساد فى الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا».. كيف تكفرون الأطفال، وتقتلونهم وهم لايدركون الكفر من الإيمان؟

- إنهم أبناء الكفار!

وهنا تدخلت زينة:

- كيف يمكن محاسبة الطفل القاصر عقلا على إيمانه أو على كفر أبيه؟ هل قتل النبى «ص» أبناء الكفار؟

فاجأ الملتحى الشابين بعبارة عنيفة:

- أنت لاتصلحين للمناقشة، أنت لاترتدين زى الإسلام، بل ترتدين زى الكفر!!

لم تكن المفاجأة مقصورة على «الزى الإسلامى» أو غير الإسلامى.. فهذا أمر معروف.. ولكن إذا كانت زينة ترتدى رداء الكفر إذن فدمها مباح،

ويصبح من واجب فيصل أن يقوم بحمايتها.. لهذا جنح بالمناقشة جنوحا غير متوقع.. سأل الملتحى:

- هل تسمح لى بسؤال صريح أرجو ألا تغضب منه؟

- تفضل.

- هل تحمل خنجرا، أو سكينا، أو جنزيرا؟

لم يجد الملتحى أية إهانة فى هذا السؤال، أجابه:

- لم أجد داعيا لحمل هذه الأسلحة، فنحن فى رحلة ترفيهية.

- هل لديك أسلحة متطورة.. مسدسات أو أسلحة رشاشة؟

وأجاب الملتحى فى ثقة:

- نحن لانحمل هذه الأسلحة إلا فى المهمات الكبيرة، وليس فى رحلة جامعية.

- أشكرك.. يمكن أن نواصل المناقشة.

وتدخلت زينة:

- أنا لى طلب آخر: أن يسحب عبارته الخاصة بى.. اللهم إلا إذا رغبتما أن يقتصر الحديث عليكما. فى هذه الحالة أنسحب أنا.

وشاركها فيصل: لابد من وجودك معنا حتى تثرى الحديث، وإلا انسحبت أنا كذلك.

يبدو أن الملتحى يريد للحديث أن يستمر.. قال:

- أنا أسحب العبارة مؤقتا.

اندفعت زينة قائلة:

- تسحبها مطلقا من غير قيود.

وأجاب الملتحى:

- مستحيل.

وتدخل فيصل:

- أرجو أن تقبلى، حتى يمكننا استئناف الحديث.

- قبلت..

واستطردت زينة:

- كيف تقول أننى أرتدى زى الكفار؟

- أنت ترتدين زيا غربيا.

- دعنيأسألك سؤالا جوهريا: هل تؤمن بأن الإسلام دين حضارة وتقدم.. وأنه نزل لتكريم الإنسان- رجلا وامرأة- ورفع مستواه المادى والروحى.. وأي عمل يخالف ذلك يعتبر بعيدا عن الإسلام.

- نعم.

- لكى يزداد الدخل القومى ومن ثم دخل الفرد، ومستواه المعيشى والثقافى لابد للناس كلهم أن يعملوا.. والمرأة من هؤلاء الناس.

- أنا أعترض على عمل المرأة.. هذا يعرضها للغواية.. ويبعدها عن الإسلام.

- المرأة هى نصف البشرية.. ونصف القوى العاملة، فإذا منعتها من العمل والانتاج، فيسنخفض الدخل القومى إلى النصف، وتفتقر الأمة الإسلامية وينخفض مستواها المتردى.

- ....

- هذا الأمر يتطلب أن ترتدى المرأة رداء يعاونها على أن تقوم بعملها بكفاءة.

الطرحة التى تخنقها والجلابيب التى تجرجر أذيالها على الأرض، تعوقها عن الانتاج، فلا تؤدى دورها فى تقدم مجتمعها.

توقفت زينة لحظة، ثم تابعت:

- هذا الزى ليس مقصوا على المحجبات من المسلمات، ولكنه زى الراهبات «المسيحيات».

- هذا زى إسلامى فقط.

- أرجوك أن تذهب إلى أى كنيسة.. أو دير.. أو مدرسة تابعة لهما، لتجد ماأقوله لك صحيحا.

- لن أذهب إلى أماكن الكفر.

- هؤلاء ليسوا كفارا، فهم من أهل الكتاب، وقد أوصى الله بهم فى كتابه الكريم..

ثم لاحقته زينة قائلة:

- إن الحجاب ليس زيا إسلاميا، أو يفرضه الإسلام، هل قرأت الحوار الذى دار بين متخصصين كبيرين فى الدراسات الإسلامية: المفتى ومستشار شهير.. حيث انتهى الأخير مستندا إلى الحديث الشريف والكتاب الكريم بأن الحجاب الذى ذكره القرآن الكريم هو الذى تقف وراءه نساء النبى «ص» حينما يخاطبن رجال المسلمين، وليس غطاء الرأس الذى تلبسه المرأة

المحجبة هذه الأيام.

- نحن لانقرأ.. ولانعترف بمثل هؤلاء المتحدثين.

- ماذا تقرأون وبمن تعترفون؟

- لنا قراءاتنا ومراجعنا.. هل تودين الإنضمام لنا.. حينئذ يمكنك الإطلاع عليها.

- لا.. أشكرك.

صمتت زينة برهة، ثم تابعت الحديث، حيث وجدت فى الملتحى رغبة فى الإستماع إليها:

- أنتم تكفرون الناس جميعا، عدا المنضمين لصفوفكم.. من أنتم بين طوائف المسلمين: شيعة، سنية، خوارج، زيدية.. من الكافر ومن المسلم من هذه الطوائف؟

توقفت زينة مرة أخرى عن الكلام لتسأل «التكفيرى» سؤالا حاسما، بعد أن أهابت به أن يستمر فى لحمه:

- سأسألك سؤال يحتاج إلى تفكير عميق.. وأنا لست متعجلة على الرد.. يمكنك أن تفكر فيه على مهل.. فهو أمر يحيرنى.. ويحير كثيرا من المسلمين والمفكرين فى كل مكان.

- تفضلى!

(همست لنفسها: تفضلى؟! لفظ مهذب، نادرا مايستخدمه هذا الفريق، وبصفة خاصة حينما يتحادثون مع السافرات أمثالى).

- السؤال هو: لماذا تعتبر الدول الإسلامية أكثر دول العالم تخلفا؟!

سارع الملتحى بالإجابة متخففا.. تقمص مظهر العارف بالأمور، قال:

- هذا سؤال بسيط، اجابته معروفة: الدول الإسلامية ضعيفة، ومتأخرة، لأنها لاتطبق الإسلام.

- اسمح لى أن أقول لك، أن هذا ليس صحيحا، فالله يعبد فى البلاد الإسلامية وبصفة خاصة فى مصر أكثر مما يعبد فى أى بلد آخر، المساجد كثيرة ومتقاربة، وهى عامرة وملأى بالمصلين، الذين يعبدون الله صبحا، وظهرا، وعصرا، ومغربا، وعشاءا.. بينما العالم المسيحى مثلا لايذهب إلى الكنائس إلا قلة، ويوم الأحد، أو المواسم الدينية.

كما أن عدد الكنائس قليل.. الأغلبية الكبرى من المسلمين فقراء.. ومع ذلك يزكون ويحجون إلى بيت الله الحرام.. يفضلون ذلك على أن يسدوا رمقهم ورمق بيتهم.. ويصومون صوما صادقا، رغم أن كثرتهم تجوع طول العام.. المسلمون يذكرون الله فى كل مناسبة، حتى فى مناسبات الترفيه، وعلى هذا فهذه الحجة بأن المسلمين متخلفون لأنهم لايتبعون الإسلام حجة غير صحيحة، لابد أن تبحث عن أسبب أعمق.. فكر فيها على مهل.

- كل ماقلت لايهم.. وليس دليلا على الإسلام؟

- أركان الإسلام الخمسة لاتهم؟ ماهو المهم إذن؟

- المهم هو تطبيق حكم الله وحدوده على الخارجين على الإسلام، وقيام حكومة إسلامية..

- تطبيق الحدود على الجوعى والفقراء والمرضى، ليس من روح الإسلام فى شىء، ألم يقل لك أحد أن عمر بن الخطاب أوقف حد السرقة، ولم

يقطع أيدى السارقين فى أعوام المجاعة.

- أعرف ذلك.

- لعل عمر قد قطن كذلك، إلى أن قطع يد السارق هو استبعاد ليد عاملة، إذا نقصت انخفضت الدخل القومى للأمة الإسلامية، وزاد فقرها.

- هذا تفسيرك أنت، لاتفسير عمر!

- لعلك تعرف أن أردأ أنواع الحكم، هو الحكومة الدينية.. فالقسس والكهنوت حكموا خلق الله كعبيد، فى عصور الإقطاع، وتملكوا الأرض وسخروا الناس لزراعتها واستغلوهم كأرقاء، وذلك كله باسم الله.. الحكومة الإسلامية فسدت كذلك حتى فى أواخر عهد عمر بن الخطاب أثرى الولاة فى الأقاليم ثراء فاحشا، واستغلوا الأمة الإسلامية وأحالوا ثروتها إلى ترف ومجوهرات وذهب، كان يكسر فى خزائنهم بالفئوس، كما يقول «العقاد» فى عبقرياته..

انتفض الملتحى.. وزمجر بكلمات مختلطة، فهم الشابان منها:

- كفى عن هذا الهراء، يبدو أننى سأنكث عهدى معكما.

وتدخل فيصل:

- الفتاة لم تقصد هجوما، بل هى تريد الدفاع عن الإسلام.

- تريد الدفاع عن الإسلام بالهجوم على حكوماته؟

- أنت تعلم أن الحاكم بشر.. وأنه يمكن أن يخطىء أو ينحرف عن الصراط المستقيم.. ولما كان حاكما مطلقا، فهو يستطيع أن يستخدم الدولة والناس فى ثرائه الشخصى.. وقد يتجبر فى الأرض ويرتكب من الظلم

مايشاء.

- ولكن الحاكم المسلم يخاف الله، ويحكم بالعدل.

- من الذى يجرؤ على محاكمة الحاكم المسلم؟ إنه يقول إنه ممثل الله فى الأرض.. وظله فيها.. فالله ينطق بالأحكام على لسانه.. لاأحد يستطيع أن يعارضه، أو يخالفه، من يفعل ذلك يعتبر مخالفا لله.. فهو إذن كافر.. يقتل طبقا لتعاليمكم.

- نعم.

- إذن ليس هناك ضمان ضد انحراف الحاكم.. وقد انحرف الحكام فى كل مراحل التاريخ ولعل أحدث مثلين لما يسمى بالحكومة الإسلامية فى الحقبة المعاصرة هما إيران وأفغانستان، وأنت تعرف المجازر التى نصبت للفرق الإسلامية المخالفة للنظام الحاكم.

لهذا فأنا أرى أن أحسن دفاع عن الدين هو أن نجنبه السياسة، حتى لايستغله الحكام ويشوهون جوهره، وأن نحميه من ذلك الاستغلال البشع.. إنهم يدعون أن الله يتكلم بلسانهم!!

كل خطأ يرتكبونه ينسب إلى الدين.. ويسىء إلى الخالق جل وعلا.. السياسة كلها أخطاء وانحرافات بشر.. ونحن نريد أن ننزه الإسلام عنها.

حين وصل الحديث رلى هذه النقطة قفز الملتحى واقفا يرتعش بدنه، وقد تلبد وجهه، فأصبح إرهابيا، احمرت عيناه وهجم على فيصل.. كان صعيديا فيه بقايا رجولة.. تمنعه من الاعتداء على النساء، حتى فيما يتعلق بالثأر.. فهو لايؤخذ من المرأة، ولكن ينصب على إخوتها الرجال.. ترك

الملتحى زينة واشتبك مع فيصل.

وقبل أن يقول له فيصل أنه مسلح، وأى اعتداء سيرده بالسلاح كانت زينة قد مارست عليه تدريباتها فى «الكاراتيه».. طرحته أرضا وأحدثت بقدميها كدمات فى وجهه.

سألت فيصل:

- لماذا تقبل هؤلاء فى الرحلات الجامعية؟

- أولا، هو جامعى، له حق الاشتراك فى الرحلات.. ثانيا، كيف يمكن التفرقة بين الإرهابى وغير الإرهابى، فى هذه الجماعة.

- ألم يقل لك إنه لافرق بين إرهابى ومعتدل.. والفكر واحد.

(١٣)

لحسن حظ فيصل وزينة.. أن الملتحى لم يكن إرهابيا عاملا!! كان يؤمن بالفكر الإرهابى ولايمارسه، الإرهابى الحقيقى متمرس على أعمال الإرهاب والغدر، وماكان يسمح لرجل أو امرأة أن يبادره بالهجوم، فهو مدرب تدريبا عسكريا شاقا، والكاراتيه أكثر هذه التدريبات تواضعا.

كان يمكنه استخدامه ويشوه وجه فتاته «القمر»!

ومن حسن الحظ أيضا، أن الملتحى كتم الواقعة فى صدره، كيف يقول للأخوة «المجاهدين» أنه سقط تحت أرجل «بنت» فى معركة تافهة من هذا النوع.

انتهت هذه الرحلة فى سلام.. ولم تكن كذلك الرحلة التالية لها، لم

يكن الملتحى بقادر على كسب المعركة، لاحوارا، ولاقتالا.. لجأ إلى التشاور مع زملائه الأكثر قدرة.. أبلغهم أن قادة جماعة الرحلات يهاجمون «الإسلام» والحكومة الإسلامية تحت شعار الحملة ضد الخوف.

أعد الإرهابيون خطتهم.. كلفت مجموعة منهم بأن يتخلصوا من لحاهم، بهذا يمكنهم الانضمام للرحلات الجامعية، دون إثارة للشبهات.. الرحلة هذه المرة إلى أسيوط والأقصر.. بلد لهم فيها معاقل منيعة «يمكن اصطياد هذه الفئة الضالة، بسهولة فيها».

بدأت الرحلة مسيرتها من القاهرة، لاحظ فيصل أنه ليس بين أعضاء الرحلة ملتحون.. ولاحظت زينة أنه ليس فيها محجبات.. وبإمعان النظر فى الأسماء، وجد فيصل بينها اسما يعرفه، لكنه كان حليقا، أمر غريب!!

أيكون قد أزال لحيته، لأنه ترك تلك الجماعات، هل كان ذلك لخوف من مخاطرها ومن الحكومة؟ أم أن الله قد هداه فبرم بمعتقداتها ومظاهرها؟

أثار هذا الاسم شكوكا لديه، باح لزينة بهواجسه، قالت له:

- أعرف عنك أنك شديد التعاطف مع الخائفين، وخوف هذا الشخص من أخطار الجماعة وعدوانها على الناس وعلى الحكومة جعله فى نظرك ضحية تريد الوقوف بجانبها.

- كأنك تقرأين أفكارى!

- لكن لدى تفسير آخر: لقد حلق لحيته ليتخفى، ويرتكب من الجرائم مايريد.

- وما العمل؟

- لابد من خطة تحمينا.. ولاتعوق رحلتنا وأهدافها.

- هذا مافكرت فيه، وهذه هى خطتى: نختار فريقا من الشباب الجسور الذى يقود الحملة ضد الخوف معنا ونسلحه.

انتفضت زينة وكأن التسليح موجه إليها:

- نحن لانقاوم الرعب بالرعب!

- نعم.. لكننا لانثير الرعب بين الناس، كما يفعل هؤلاء، ولكننا نحاول حماية أنفسنا.

- ولكن وسيلتنا هى الحوار والإقناع المسالم.. وليست البنادق والمسدسات.

- من السذاجة أن ترى المجرم يجابهك بالسلاح ثم تواجهه أنت بوردة، وبحوار مقنع.

- مايقلقنى هو أن نقلب الرحلة إلى معركة عنيفة بين فريقين مسلحين، وهذا يعنى أن الرحلات الجامعية ستلغى نهائيا.. ويقفل أمامنا باب واسع ننفذ منه بأفكارنا.

- لاتخافى.. معذرة فأنت لست «خوافة»! أقصد اطمئنى فخطتى محكمة، هل تنتظرين لأعرضها عليك؟

- طبعا.

- إننا لانستطيع أن نفتش حقائب الأعضاء هنا حتى لانثير الشبهات، اتفقت مع شابين لحراسة الأمتعة، سيفتشان الأمتعة فى أسيوط.. ويأخذان مافيها من أسلحة ويخفيانها.. وذلك فى وقت يكون الجميع مشغولين فى

الندوة، التى سنعقدها فى الجامعة.. وعندما يذهب الإرهابيون لأخذ أسلحتهم وتنفيذ مخططهم، لايجدون الأسلحة.. أنا أعتقد أنهم جبناء.. لايستطيعون التحرك بدون هذه الأسلحة.

وهنا قالت زينة:

- يعجبنى تفكيرك الرشيد.. وعقلك الراجح.. إنهما يربطانى بك، وأنت لاتملك غيرهما.

وأجابها باسما:

- هذا خطئى، إذ أنظر إليك كشريكة فكرية، وربما كشريكة أخرى، وسنرى إ كنت تصلحين لهذه الشركة المرجوة!!

- كْده.. طيب!

- أنت التى بدأت «القفشة» على كل حال.

- «قفشتك» لذيذة.. وأنا أهواك لروحك المرحة.. ولأسباب أخرى لن أكشفها لك.

وصلت الرحلة إلى مرحلتها الأولى: أسيوط.. بعد أن شاهد الطلاب مافى المنطقة من آثار، ذهبوا إلى الجامعة.. أقيم لهم حفل شاى، أعقبه ندوة عنوانها «الرعب والفكر».

الجامعة تعلم مهمة قادة جماعة الرحلات، وأن موضوع الملتقى الليلة سيكون الرعب الذى يحدثه الإرهابيون، والجرائم التى يرتكبونها، لهذا وافقوا على الملتقى، فهو يعاونهم على مقاومة الإرهاب فى أسيوط، المنطقة التى صدرت الإرهاب إلى المناطق الأخرى.

وقف شاب من رفاق فيصل: «عمر»، ليفتتح الحوار.. نحن نشكر جامعة أسيوط على هذه الاستضافة الشجاعة للمنتدى.. لقد رحبت بندوة يحيط بها الإرهاب من كل جانب، وأنا أقترح موضوعا واحدا للمناقشة: الجانب الفكرى للإرهاب، كيف يسىء للإسلام، ويربطه بالرعب فى أذهان الناس؟

ثم قدم أحد الأساتذة ليدير الندوة.. فى هذه اللحظة جاء الحارس على الأمتعة الرجالى وهمس لفيصل:

- جاء أصحابك.. وفتشوا فى الأمتعة لم يجدوا الأسلحة جزعوا.. وفى محاولة للاستماع لما يقولون التقطت هذه الكلمات:

- الأسلحة النارية ليست مهمة، نحن لانستخدمها فى الجامعات.. فهذه منابر لنا.. ولنا فيها أنصار كثيرون، مايهمنا الآن الأسلحة التقليدية الأخرى، وهى التى نستخدمها فى الجامعات: الخناجر والمطاوى والجنازير.. كيف يضحكون علينا ويسرقونها؟

سكت الإرهابى، ثم انخفض بصوته فلم أعد أسمعه.

ورد فيصل:

- أنا أقول لك مالم تسمعه: منطقة أسيوط مسكونة بأنصار هذا الفريق.. وهذه الأسلحة يمكن الحصول عليها بسهولة.. وسوف يذهبون إلى أوكارهم لإحضارها.

ذهب فيصل إلى حرس الجامعة.. وطلب منهم أن يمنعوا دخول أى إنسان إلى الجامعة أو خروجه منها.

كانت توقعات فيصل صحيحة، أراد نفر من الإرهابيون الخروج من

البوابة، منعهم الحراس.. أسقط فى أيديهم.. تسلل الخوف الذى يسببونه للناس إلى أفئدتهم.

قصد فيصل حماية أعضاء الرحلة، لم يستعد الشرطة ضد الإرهابيين، فهو صاحب رسالة، هى محاربة الخوف، شهد بنفسه كيف ترعب السلطة الأحرار الذين ينادون بحقوق العمال فى حياة كريمة آمنة، خالية من الخوف والجوع.. كان على يقين بأن الإرهابيين الذى يظهرون الشجاعة والأسلحة فى أيديهم لاقوة لهم بدونها.. انضم فيصل إلى الندوة ليستمع رلى الأستاذ يكمل حديثه:

... «لايمكن لله عزل وجل، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وكرمه أجمل تكريم أن يرعبه لإجباره على عبادته وتوحده.. فكلمات القرآن والإنجيل والتوراة رقيقة، تدعو لأديان الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. كيف يجبر الله خلقه على عبادته.. الجبر يقتل الإرادة فيصبح الإنسان بلا إرادة، ومايصدر عنه يكون بغير اقتناع ولاوعى ولا مشيئة.. وكأن الإنسان حيوان.. والله لايسعده أن يعبده مثل هذا الإنسان الحيوان»!

وتساءل شاب ملتح:

- الله جل وعلا يقول: «وماخلقت الإنس والجن إلا ليعبدون» فإذا لم يعبدوا الله طوعا، يجب أن يعبدوه كرها.

ورد الأستاذ عليه:

- أشكرك لتدخلك.. الآية ليس فيها إكراه على الإطلاق، بل إن آيات أخرى تنفى الإكراه فى العقيدة «لا إكراه فى الدين».. «لكم دينكم ولى

دين».

اعتلى المنصّة أستاذ آخر:

- هناك ظاهرة لاتقل خطورة عن الإرهاب.. بل إنها تسهم في إذكائه، والتحريض عليه.. هناك فريق تحتضنه الدولة، يسمونهم «الدينيون المعتدلون».. وهو طوائف مختلفة يحاطون بهالة من التقديس تخلعها عليهم الدولة، ويجلهم الناس، لأنهم الدعاة الذين ينشرون رسالة الله.. والحق إنه يجب ألا يكون هناك تقديس لغير الله، حتى الأنبياء بشر، نؤمن بهم لأن الله أرسلهم لنا برسالاته.. لكنهم يخطئون ويصيبون كسائر الناس.. وقد صحح الله للنبي «ص» أخطاءه في القرآن مرات عدة.. وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء والرسل، فمن باب أولى يكون وضع المتحدثين المعاصرين باسم الأديان.. إن لهم احترامهم ومكانتهم، طالما فسروا كلام الله تفسيرا يبرز مافيه من جوهر: تكريم الإنسان، تحرره، ومقاومة كل صور القهر والرعب والاستغلال والامتهان التي يتعرض لها.. وإبراز مافي الرسالات السماوية من حب وتسامح وجمال.

هذا التقديس لهذه الفئة يجعلها تحرف الكلم عن مواضعه، فهذا واحد منهم يصدر بيانات تكفر المسلم المثقف حتى لو كان مكفره جاهلا.. ومن يقتله لا عقاب عليه، وهذا في الواقع هو مايفعله الإرهابيون ومفكروهم.. وبهذا يستوي الإرهابي الذي يثور على الحكومة، ويقتل الابرياء مع الإرهابي «الجليل» الذي يقول نفس الشيء ومع ذلك تكرمه الحكومة.. والحق أن للإرهاب جناحان: جناح الجماعات الإرهابية المعروفة، والجناح «المعتدل»

الذي تحتضنه الدولة، وتستخدمه الدولة، وتستخدم أجهزتها الإعلامية لإشاعة أفكاره بين الناس، وتخلع عليهم المهابة والجلال والفضيلة.

وهذا شيخ آخر يجلس على مقعد رفيع في أجهزة الإعلام، لاهم له إلا الحديث عن الروح- رغم أن علمها عند الله وحده- وكذلك الحديث عن الجان والعفاريت وغيرها.. وكأنه بعيد عن معركة الإرهاب، لايدري عنها شيئا، وهو بعيد كذلك عن قضية العدل الاجتماعي، الذي يعتبر أصلا أساسيا من أصول الإسلام، الرجل معروف بأنه في صف الإرهاب الفكري رغم ذكائه الشديد، وهو يحتل مكانا مرموقا في المؤسسات الاقتصادية المدعمة لتلك الجماعات، كالبنوك وشركات توظيف الأموال، رأس بعضها وكان وسيطا بين الدولة وبينها، كل ذلك لم ينل من الرجل ومكانته التي أسهمت الدولة في جعلها مقدسة.

(١٤)

استقبلت الأقصر ومعابدها الرحالة المناضلين ضد الخوف، استقبالا حميما، فتحت لهم ذراعيها شرعت أعمدتها، تضرب برؤوسها في السماء، حاملة زهرة اللوتس، التي تنفث عطرا أبديا، وتربط السماء بالأرض بأريج فواح فيصبح الكون كله وحدة واحدة عطرة.. «الأقصريون» أحفاد أصلاء للفراعين، هؤلاء كشفوا للعالم عن فكرة «التوحيد» التي عبر عنها «إخناتون».. أثبتوا أن هذا الفن الجميل وتلك الآثار الباقيات هي من عمل شعب خلاق، شعب أبي مقدام.. وإلا مابتكر هذا الفن الخالد على الزمان.

يبدو أن روح الإقدام تسللت من القدامى إلى المحدثين، طارت إليهم أنباء انتصار المحاربين للخوف على قوى الرعب فى أسيوط، خرجوا زرافات ووحدانا، يرحبون بالضيوف..

جاء إلى فيصل عامل من الآثار يدعى «أمين».. قدم نفسه إليه قائلا:

- وصلتنا أنباء رحلتكم إلى أسيوط.

- كنا هناك بالأمس فقط، كيف جاءتكم الأنباء بهذه السرعة.

- نحن فى عصر ثورة الإتصالات!!

ضحك فيصل، وواصل أمين كلامه:

- المهم، إنى أود أن انبهك لكى تحتاط ضد خصومك.

- نحن ليس لنا خصوم.

- لابد أن تحترس، أنتم تقاومون الخوف، وهو سلاحهم، وأنتم تقاومون الوسيلة التى توصلهم إلى أهدافهم، ومادتم كذلك فأنتم فى نظرهم كفار!!

واستدرك أمين:

- أنا لاأريد أن أخيفك.

وقاطعه فيصل:

- اطمئن.. نحن لانخاف!

- لكن الاحتياط واجب!

- ماذا تقترح؟

- أهل بلدنا شجعان، يمقتون الإرهاب، فيهم شهامة تمتد جذورها من

العرب إلى الفراعنة، يفدون الضيف بأرواحهم، سأجمع لكم بعض شباب العمال، وطلاب الجامعة لحمايتكم.

- شكرا لك.. لكن هذا سوف يلفت نظر الجماعة.. وربما لايعلمون بوجودنا.

- الإنسان الذى يقود حركة ضد الخوف، لابد أن يحيط بالإرهاب ووسائله.. إن لديهم مخابرات مبثوثة فى كل مكان، فهم يعرفون تحركاتكم، أرجو أن تجابه الواقع بعيون مفتوحة.

- وماذا ترى؟

- سيحميكم شباب الأقصر، نحن لدينا وسائلنا، الإرهابيون معروفون لدينا.. وسنمنعهم من الوصول إلى أى مكان تذهبون إليه.

- لكن هذا يعرضكم للأخطار.

- نحن حريصون مثلك، على الأقل!! على أن يتحرر هذا البلد من الرعب والإرهاب، والفساد والاستغلال.. أريد أن أسألك.. هل ستعقدون هنا ندوة مماثلة لندوة أسيوط.. لمقاومة الإرهاب.

- نعم الإرهاب فى كل صوره.

- أين ستعقدوها؟

- لا أدرى حتى الآن.. ربما فى الفندق، أو فى إحدى الكليات أو المعاهد.

- هذا يعرضكم للخطر.. هذه أماكن يمكن للإرهاب أن يتسلل إليها.

- وماذا تشير؟

- أرى أن تعقد الندوة هنا فى رحاب الفراعين، سوف يباركونكم، وينفثون فيكم رَوحا من عندهم.

- هذه فكرة جيدة.. وقد لاتتوقعها عناصر الرعب.

أعد أمين وفيصل مكانا للإجتماع، تقوم على جوانبه أعمدة اللوتس، وتماثيل الأبطال، وجاء موعد الاجتماع، فوجىء فيصل ورفاقه بالحشد الكبير الذى جاء إلى الإجتماع، رعشة جذلة تسرى فى أوصالهم.

بدىء الحفل بآية كريمة: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»، ثم وقف أمين ليفتتح اللقاء قائلا: فرحنا بضوفنا الشباب، الذين جاءوا من أقصى الشمال يحملون مشاعل ممفيس وعين شمس لتستقبلهم طيبة، ويلتحمون معها فى حمل الشعلة الكبيرة، التى أضاءت للبشرية طريقها، حينما كانت البشرية طفلة.

اتفق أمين وفيصل على أن يكون المتحدث الأول فى هذا الاجتماع، هو زينة!!

الغريب أن صاحب الفكرة هو أمين: صعيد قح، يقترح أن تمثل الجماعة التى تقود الحملة ضد الخوف امرأة، وليس رجلا، إنهم فى قلب الصعيد «الجوانى».. كيف تجرؤ امرأة على الحديث فى جمع من الرجال؟ قال أمين: هناك فكرة خاطئة لدى «البحاروة» عن المرأة «الصعيدية».. المرأة تستمد مكانها عندنا من المرأة الفرعونية، والمرأة فى المسيحية وفى الإسلام.. لها شخصيتها ووضعها الذى يحترمه الجميع.. ألم تر كيف تصدرت حتشبسوت ونفرتيتى وكليو باطرة وشجرة الدر لقيادة الدولة؟ وقمن بأعمال

عظام؟ ألم يحرك شعر حتشبسوت وعيناها الإحساس بالجمال فيك؟ ألم تلعب عنق نفرتيتى بخيالك؟ ألم يهزك سحر كليو باطرة؟ ألم يمتزج هذا الجمال بالاحترام الذى يكنه لهن كل مصرى؟ بل كل إنسان فى كل مكان؟

لماذا بعد هذه الآلاف من السنين، تقر المرأة على أن تقبع فى دارها، وتلف نفسها بلفائف تعوق حركتها، كإنسانة منتجة، تسهم فى خير مجتمعها وتقدمه.

انتشى فيصل وهو يستمع لأمين، أسعده أن يرى جمعا من البنات، جئن للمشاركة فى اللقاء.. حقا، كانت بعضهن محجبات، يلبسن الطرح، لكن الطرح، كانت أشبه «بإيشاربات» جميلة الألوان، تزيدهن رونقا، فهى ليست تلك الطرح «الطويلة» المخمرة، التى تخنق الرقاب، وتصم الآذان، وتلبس فوقها «طاقية» كالرجال!

استقبلت «زينة» استقبالا حارا من المجتمعين، كانت سافرة لكنها محتشمة، فستانها طويل، تلبس جوربا، وليس فى وجهها «مكياج».. لكن جمالها كان طبيعيا خلابا.. يبدو أن أرضى الجميع، بما فيهم المتدينون، من غير الجماعات الإرهابية، الذى حضروا الإجتماع، ورأوا فى الجمال الطبيعى عظمة الخالق المبدع لهذا الجمال.

بدأت زينة حديثا جميلا وشيقا: إن القرآن والرسالات السماوية قامت على الحب بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والإنسان.. الله خلق الإنسان ليعبده عن حب ورضا لا بالإرهاب والرعب، الذين يدخلون التخويف إلى النفوس ينحرفون بها بعيدا عن الدين، ونحن لاندعو للعنف لمقاومتهم،

ولكن ندعوهم إلى صراط مستقيم، صراط الحكمة والموعظة الحسنة.

شجعت كلمات زينة أحد المتدينين من غير المتطرفين، كانت له لحية مهذبة، وكان فى حديث استنارة وتقوى قال:

– لقد أفرخ الإرهاب وملأ الساحة بفكره، لأن الساحة كانت خاوية، ولم يكن هناك فكر آخر يملأها غيره.. فإذا نقينا الإسلام من الإرهاب، ومن استغلاله للقفز على الحكم، يمكن أن يكون سلاحا فاعلا ضد الرعب.

واشترك فيصل:

– المذاهب الإسلامية والآراء فى الشريعة متعددة ومتعارضة، وقد تقاتلت الفرق الإسلامية عبر الزمان، واشتد بطش الخلفاء والمشايخ والولاة بشعوبهم.. فاستغلوها باسم الإسلام، كما فعل القساوسة فى أوربا فى القرون الوسطى.. فاستعبدوا الناس باسم المسيحية.

وتساءل مستمع؟

– ماذا تقترح؟

– الإسلام منارة، تنير للبشرية طريقها، وتربط الإنسان بخالقه، يجب حمايته من الذين يريدون استغلال عباد الله باسمه.. والله خلق للإنسان عقلا، هو أثمن مايملكه، ليستخدمه فى إقامة النظام الاجتماعى الاقتصادى، الذى يحقق الخير والعدل، العقل هنا هو العقل الجماعى.. أى مجموع عقول الأكثرية من خلق الله.. وليس عقل أقلية تدعى الحكمة، أو تحتكر تفسير الأديان.. والرسول (ص) يقول: «أنتم أعرف بشئون دنياكم»،

ومصلحة الجماهير، أو المصالح المرسلة، هى أصل من أصول الشريعة، وتعتبر الأصل الإلهى لنظام الحكم، وهذا يتطلب أن تكون الأرض والمشروعات فى أيدى الجماهر، حتى لاتستغلها القلة، وتغتصبها باسم الدين.

وطلبت زينة الكلمة:

– أريد أن أكون صريحة معكم.. لقد أفرخ الإرهاب واستشرى، لأنه وجد فراغا أيديولوجيا كبيرا.. لم يملأه حزب سياسى، ولا أيديولوجية تلعب بخيال الناس، وتجابه مشكلاتهم العضال، من فقر وتخلف وبطالة.. أيديولوجية السلطة الحاكمة، مناقضة لمصلحة الجماهير، فهى منحازة للأثرياء وهى تابعة للدول الرأسمالية، والفساد قد استشرى فيها، وضاق به الناس جميعا، ومن بين أحزاب المعارضة من يقول بأنه يمثل الأمة وهو فى الواقع يمثل الباشوات والرأسماليين القدامى.. أما أحزاب اليسار فقد عاقتها قوى مضادة محلية ودولية عن التواصل مع الجماهير.. لذلك لم تملأ الفراغ بنشر الاشتراكية بين الناس، لهذا ملأ الفكر الإرهابى الفراغ بسهولة.

واختتمت فكرتها قائلة: الإرهاب لن يسكت رصاص البوليس، وسوف يسكته الاشتراكية، التى تحل مشكلات الجماهير، وتحقق آمالهم، الاشتراكية هى الحل.

فى هذه اللحظة سمعت طلقات من مدافع رشاشة.. تدوى فى الأفق على مسافة قريبة من مكان الإجتماع، حدث ذعر وهياج بين الحاضرين،

هبوا وقوفا، لكن أمين، وقف بسرعة وبصوته القوى الواثق قال لهم:

– أيها الأخوة، إننا لانرهب الإرهاب، كنا نتوقع هذه الأحداث، كانت خطة الإرهاب على جزأين: يتسلل إلى الاجتماع فريق منهم يحملون الأسلحة الأولية: الخناجر والجنازير.. مهمتهم الاعتداء على الرحالة وتخريب الاجتماع.. الجزء الثانى هو الاعتداء على الشرطة.. أدى الشباب الأقصرى دوره، فقبض على حاملى الخناجر.. وهم محبوسون فى أحد المقابر.

أنتم الأقصريون الأبطال، أحفاد هؤلاء العظام، الذين يطلون علينا، ويتحدون الزمان، فأثبتوا فى أماكنكم.. هؤلاء الضيوف الشجعان فى حمايتكم، أتوا من الشمال ليتعاونوا معكم فى دحر الرعب.

وتحدثت توحيدة: مشكلتنا الكبرى ليست دينية، فللدين رد يحميه.. ولكن المشكلة الكبرى التى يريد الإرهاب أن يبعدها عن أذهاننا، هى مشكلة الفقر الذى نرفل فيه، والاستغلال الذى نرزح تحته، تارة باسم الدين، وتارة بأسماء أخرى.

تعاونت الجماهير فى القبض على الإرهابيين المسلحين بالبنادق السريعة الطلقات، كانوا ثلاثة فحسب.. أحدثوا كل هذه الضجة، هجمت الجماهير العزلاء عليهم، كان عليهم تحاشى الموت من رصاصهم، ومن رصاص الشرطة!

(١٥)

عاد الرحالة من أرض الأجداد، استمتعوا برؤية الفن الخالد، استمدوا الوحى من الروح القديم الوثاب، الروح التى قفزت سبعين قرنا فوق الزمان.. أرادت أن تضع بسالتها فى صدور أحفادها.. لقد تواصل المقاومون للخوف مع الجماهير التى ورثت جسارة الفراعين.. وحققوا معا نصرا اقصريا على قوى الرعب.

فيصل لديه ثقة كبيرة فى الإنسان، وفى قوى الخير الرابضة فى أعماقه.. الإنسان العادى يستجيب دائما للأفكار الطيبة.. يكتنز شجاعة تلقائية تظهر عند الضرورة، ضد أولئك الذين يخاصمون البشرية.. لم يكن يفطن إلى أن هناك نفرا تكمن نوازع الشر فى نفوسهم.. تمور صدورهم بمشاعر البغضاء.. والأخذ بالثأر.. للهزيمة التى حاقت بهم.

لم يكن يدرى أن اسمه وأسماء بعض رفاقه وضعت فى القائمة السوداء، وأن حياتهم فى خطر، وأنهم أصبحوا خصوما ألداء لهؤلاء الذين يدعون الإسلام، ويعيثون فى الأرض فسادا وتقتيلا.

هو الآن فى الخامسة والثلاثين، وهى سن تهدأ فيها الفروسية الرومانسية التى استمدها من أبطال الفولكلور.. مضى زمانها، أحلام الشباب بدأت تتراجع، وهناك واقع معقد يجب التعامل معه، الشجاعة ومقاومة الخوف يجب أن يخضعا للعقل والحكمة.

أصبح تفكيره رشيدا، قطار الشجاعة الزاحف لمواجهة الخوف، يجب أن يسير جنبا لجنب مع قطار العمر، ذكرته السنون التى انصرمت من عمره

نصيبه من الدنيا!! منذ السابعة وهو ينازل الخوف، ويعترك معه صورا وألوانا.. لم يفطن إلى أن له غريزة تلح فى التعبير عن نفسها.

كبتها هذه السنين الطوال، ربما منذ أن جلس مع زينة على حافة الغدير.

قلبه يرف رفيقا من نوع جديد، رفيف الحب والحياة.. هذه زينة وجهها «زين» الحياة تتفجر من صدرها، والأنوثة تتأود فى قوامها: «لماذا لا أتزوجها؟ لاشك أنها تكن فى نفس العاطفة.. الزواج لن يعوقنى عن الحرب ضد الخوف، على العكس سأنشىء بزواجى منها خلفا ضد هذا العدو الغاشم».

دعاها إلى العشاء، فى مطعم ينساب فوق النيل.. فى مركب بيضاء كالحمامة.. لبت الدعوة بفرحة، وردت وجنتيها، كانت فى حاجة إلى لمسة حنان، بعد أحداث الرحلة المرهقة المظفرة، حينما دلفت إلى المكان، وغرقت فى رومانسيته، قالت له:

- إيه الحكاية، إيه ده كله؟

- لابد لنا من مكافأة على الرحلة الناجحة.

- لم أكن أعلم أنك رومانسى «استراتيجى» بهذا الشكل.

- يبدو أنك لاتعلمين أشياء كثيرة.

- أنت لاتدرى ماأعلمه.

- إن كان علمك واسعا، فهل تعرفين لماذا دعوتك إلى هذا المكان؟

- أعرف.

- لماذا دعوتك؟

- لأنك تحبنى.

- هذه قديمة.

- حبى لك أصبح قديما.

- هو قديم جديد!

- أليس الحب هو السبب فى هذه الدعوة؟

- الحب هو الأصل، وحبى لك تمتد جذوره أكثر من عشرين سنة، يوم ولدت!!

- ماذا إذن غير الحب يجمعنا؟

- تقولين أنك تعرفين كثيرا، ألا حدست ذلك؟

ترددت زينة، لكنها خمنت تخمينا، يكاد يكون يقينا، إنها تكن له عاطفة تجمع بين القلب والعقل.. تشاركه مبادئه وأفكاره، طرق الحب قلبها وهو مازال برعما صغيرا، ثبت أبوها هذا الخوف بصفعته، لم تظهر آثارها على وجهها فحسب، بل طبعت بصماتها على قلبها، لكنها أنثى.. والأنثى فى كل زمان ومكان تود أن يبدأها الرجل، ذلك البدء الجميل، الذى يصعد بسعادتها إلى ذراها، قالت له بمكر أنثوى محبب:

- إن حاسة الحدس عندى متوقفة!

- منذ متى؟

- منذ أن كنا صغارا، نداعب خيالينا فى الجدول الرقراق!

- هذه مدة طويلة.. كيف تغفين هذه الغفوة؟

- لن تجر رجلى لأبوح لك.

لماذا؟ والبوح إذا جاء من جانبك يكون أروع!!

- ليس ذلك ضروريا.. نحن متساويان.

- لكنك مصدر الجمال فى هذه العلاقة، وانت التى تستطيعين أن تجمليها وتحليها، بقدر مافيك من جمال وحلاوة.

- ومادورك أنت؟

- أتذوق الجمال.. عندى قدرة خارقة فى هذا المجال.

- ومن أين لك بالجمال، كى تتذوقيه؟ أنا رجل «خنشور يعنى»!

- أنا امرأة، والجمال هنا بالنسبة لى لابد أن يكون رجلا.. وأنا أحبك.. فأنت النبع الذى استقى منه الجمال!

- يابنت؟ أقول لك على حاجة: إنت غلبتينى.

- العفو، ياحضرة «الأفوكاتو».

- أنت انتصرت على «الأفوكاتو» وكسبت قضية الحب.

- لا ياحلو!! لاتعتمد على هذا الاعتراف السهل، الحب علاقة بين إثنين.. وهى متبادلة.. وكلما كان الشعور من الجانبين قويا كلما كان طعم العلاقة لذيذا، وكلما كانت السعادة أكبر.

- لاتخافى.. سأنافسك فى هذا الميدان، وسأنتصر عليك.

- لن أمكنك من النصر، فأنا أملك مفاتيحه! لكن المنافسة هنا جميلة، تفرح وتسعد.. وهى ليست منافسة قاتلة كتلك التى توجد فى السوق الرأسمالية، حيث يفتك المنافس بمنافسه.

- لقد أخذتنا بعيدا عن الغاية التى كنا نقصدها.

- أية غاية؟

- يابنت يالئيمة.

- قول من غير لف ولا دوران.

- سأقول.

- أنا مستمعة.

- أحبك.

- هذا أمر معروف.

- طيب.. أريد أن أتزوجك!

لم تتبع «زينة» ماتفعله البنات عادة «فتسوق التقل» أو تقول «روح قابل بابا» أو «أدينى فرصة أفكر»!! ولكنها فاجأته بلهفة:

- هذه أمنيتى منذ أن كنت صبية صغيرة، أنت معى دائما فى أحلامى ويقظتى.

- أنت كذلك لم تغيبى عن خاطرى لحظة.. لكن أريد أن أكون أمينا معك.. الأحداث التى مرت بى كانت عاتية، قطعت التفكير فيك.

- لقد انتصرت عليك، فى هذه النقطة الجوهرية.

- كانت أحداثا قاهرة غاشمة.

- آن الأوان لتحدثنى عنها.

- لا أريد أن أفسد هذه اللحظة السعيدة، دعينا نفرح بها.

بلغت الفرحة بهما ذراها.. السفينة تسرى على النيل، وتسرى معها نسمات رخية.. القمر ساج.. أشعته تثير الشجن.. كانا يشغلان ركنا بعيدا

من الأنظار، لم تستطع أن تكبح جماح رغبة راودتها، عرقلها المجتمع بتقاليده، لكن ليس هناك مجتمع غيرهما.. قامت من مقعدها.. قبلته قبلة ناضجة.. عمرها عشرون عاما! وتمتد إلى المستقبل كله.

أسكرته القبلة.. كان فيها مذاق خاص، هى التى أخذت المبادرة.. قال لها:

- أشكرك على أنك كسبت هذه الجولة الرائعة كذلك.. أنت أكثر شجاعة منى!

- هذا اعتراف أسعد به، لكنى لاأشجعك عليه، أريدك أن تكسب المنافسة.. وأنا لست أكثر منك شجاعة.. ألست صاحب الدعوة ضد الخوف.. وزعيمى؟!

(١٦)

كان لمعركة الأقصر آثار متنوعة. بعضها سعيد، وبعضها بائس، كان السعداء هم أهل الأقصر وجماعة المقاومين للخوف، قلموا معا أظفار الإرهاب الأسود.. الجانب البائس لتلك الأحداث كان رهيبا.. حينما منى الإرهابيون بالهزيمة.. فسروا تجمع الناس ضدهم على أنه تجمع للكافرين، جاءهم نفر منحرف من القاهرة فاتبعوا الشيطان!

كانت روح الانتقام، التى أسفرت عنها المعركة مع الإرهابيين ذات شقين: ثأر شخصى ينبع من الهزيمة.. وثأر آخر أشد خطرا، هو القضاء على تلك العصبة الباغية القادمة من الشمال، إنها توحى للناس بأن الإسلام هو

دين الحب والسلام، وهو يحرم الإرهاب والرعب وأن المسلم المطوع بإيمانه أكرم عند الله من المسلم المدفوع للعبادة بالخوف، لهذا فجزاء هذه الطغمة «الكافرة» هو الموت.. ودبر الإرهابيون أمرا، أرسلوا أحدهم ليتابع فرقة مقاومة الخوف وليخطط لاغتيال أفرادها.. إنهم أخطر من الشرطة هذه تعتمد على الرصاص، كما نفعل وأولئك يلجأون إلى أيديولوجية بديلة.

وجد مندوب الإرهاب أنه من السهل القضاء على هذه الفرقة.. الشخصيتان الرئيسيتان، وهما فيصل وزينة، مستغرقان فى فترة رومانسية، ويعدان نفسيهما للزواج.. بالإضافة إلى أن فيصل إنسان مسالم، لايفكر فى استخدام العنف فى حركته، وهذا أمر غريب من إنسان يتصدى لمصدرين أساسيين من مصادر الرعب فى المجتمع، هما الإرهاب الدينى والسلطة.

اتصل إرهابى الجنوب بإرهابى من الشمال، وتحاورا.. قال الجنوبى:

- أرى أن نتخلص من زعيميهما: فيصل وزينة، فى ليلة زفافهما، بهذا يكون الانتقام مزدوجا: نفجعهما فى حلم حياتهما.. أى الزواج.. ونخلص الإسلام من عدوين خطرين من أعدائه..

كان للإرهابى الشمالى رأى آخر: يبدون أن الإرهابيين ليسوا على نفس الدرجة من القسوة!! قال:

- لكن هذا الانتقام سيصمه الناس بأنه وحشى، وسوف يتعاطفون مع الضحيتين اللتين قتلتا غدرا، ليلة فرحهما.

- أنت لم تشهد هزيمتنا النكراء فى الأقصر، وإلا كنت غيرت رأيك.

- هذا لون من الانتقام، أو الأخذ بالثأر، يجب أن نطهر دعوتنا منه.

كيف تقول ذلك؟ نحن ننتقم لضحايانا المجاهدين فى المعركة.. وننتقم كذلك للإسلام الذى يهدم دولة الكفر.

كانت الكلمات ثقيلة.. لايستطيع الإرهابى الشمالى معارضتها، إنها فلسفة التنظيم، وافق زميله على قتل فيصل وزينة.. لكن ليس فى ليلة زفافهما، وهما فى «الكوشة» حاول إقناع زميله الجنوبى:

- فى ليلة الزفاف سيكون الحفل فى مكان مقفول، هناك ناس كثيرون، وقد يتعذر الفرار بعد العملية، أفلا ترى معى أن اصطياد العروسين فى مكان آخر أفضل وأكثر أمنا لنا؟

- هذه نقطة فكرت فيها، الخطة التى وضعتها ستمكننا من الهروب.

- إلى جانب ذلك، هناك عدد كبير من المحتفلين بالعروسين.. وقد يصيبهم الرصاص والمتفجرات، وهم لادخل لهم فى جماعة «مقاومة الخوف».

- يبدو أنكم «يابحاروة» قد أصابكم نوع من التراخى.. هذان العروسان كافران.. سينجبان ذرية كافرة. والمدعوون أهلهم واصدقاؤهم.. وهم من أهل الشرك.. كذلك فقتلهم فى ليلة الدخلة، انذار لكل من تسول له نفسه، أن يتحدى دعوتنا، وتخويف لغيرهم.. وتذكير، بأنه لافرح فى الدنيا، إلا الفرح الذى تقره دعوتنا الإسلامية.

لم يستطع الإرهابى الشمالى أن يقنع زميله بالعدول عن فكرة اغتيال العروسين ليلة زفافهما.. وسط ورود الزفاف وثرياته.

ولكى لايثير الإرهابيون الشبهة، أزالوا لحاهم.. وسيقوم الإرهابى

الجنوبى بعملية الاغتيال بالمدفع الرشاش فحسب، دون استخدام القنابل، لبعد خطرها إليهم.. وسيكون فى حراسته إثنان من الارهابيين.

جاءت ليلة الزفاف.. لم تكن الجماعة المقاومة للخوف غافلة عما يدبر لزميليهما فيصل وزينة.. كان بينهم نفر حريص.. أيقنوا أن الإرهاب لايمكن أن يمرر معركة منتصرة لخصومه، دون انتقام، ومنذ انتهاء رحلة الجنوب وهم يدبرون لحماية الجماعة وقائديها.

سلح فرق من جماعة مقاومة الخوف بمسدسات، وحفظت فى جيوبهم، كلفوا بحراسة الحفل.. كانوا من سكان المبنى الذى يسكنه فيصل، سيقام حفل الزفاف على السطوح.. أو كما يقال عصريا «الروف».

العروسان محدودا الدخل، لايستطيعان الاحتفال بزفافهما فى الفنادق المترفة، كانوا يعرفون سكان العمارة.. يمكنهم كشف الغرباء عنهم.. شاركهم بعض أقارب العروسين الذين يعرفون «معازيم» العروسين.

جاء الإرهابى الجنوبى «عبد القوى».. حياه أعضاء جماعة مقاومة الخوف، وسألوه:

- حضرتك معزوم فى الفرح.

- أبوه معزوم.

- أنت من قرايب العريس أو العروسة؟

ورد الإرهابى بلهجة غير المتوقع للسؤال.. فكانت لهجته صعيدية طبيعية:

- ليه يابوى.. هو فيه فرق بين معازيم العريس والعروسة؟

- لا.. بس معازيم العروسة قاعدين فى جنب ومعازيم العريس فى جنب تانى. -

وأجاب الإرهابى:

- «لع» إحنا أهل العريس يابوى!

استطاع عضو جماعة مقاومة الخوف أن يستنتج أن هذا الإنسان غريب عن الحفل، وأنه صعيدى.. وأن أقارب العريس كلهم من الشرقية.. واستنتج أن يكون قد أخفى أسلحته فى جلابيته.. وبإشارة منه إلى الزميلين اللذين يعاونانه فى حراسة «الفرح» صعدا إلى السطح مع المدعو غير المرغوب فيه.. وهناك أجلسوه فى الجانب المخصص «لمعازيم» العريس.. ولاحظا أنه بعد أن جلس غير مكانه وجلس بجوار الباب.

وجاء الإرهابيان الآخران.. كانا حليقين.. مضمخان بالعطور، يرتديان ملابس زاهية الألوان.. لكنها منفوخة نوعا، وكأنها تخفى بين غلائلها أمرا.. يبدو أن الإرهابى الشمالى «عبد الجبار» كان أحدهما، أفصحت عنه لهجته غير الصعيدية.. وعندما سئل عن علاقته بالعروسين قال:

- أنا من أهل العروسة.

- تبقى شرقاوى.

- نعم.. أنا شرقاوى.

- من نفس القنايات؟

تردد الإرهابى وكأنه لايعرف بلدة العروس، ثم استدرك:

- لا.. أنا مش من نفس القرية، أنا من بلد ثانية مجاورة.. لأن العيلة

مقسومة قسمين.. لم يكمل الإرهابى كلامه.. لأنه لايعرف قرى الشرقية القريبة من الزقازيق.. كان هذا كافيا ليثور الشك حوله.. وأجاب الإرهابى الآخر بأنه من أهل العروسة، ولم يكن هناك حاجة لسؤاله.

فهو جاء مع الإرهابى الآخر وبذلك يكون زميله.. صحبهما عضوان من جماعة فيصل إلى السطح، وأجلساهما فى القطاع المخصص لمدعوى العروسة.. لم ينظرا إلى الإرهابى الأول.. وكأنهما لايعرفاه، وبعد لحظة انتقل الإثنان إلى جوار الباب.. بهذا تأكد حراس الفرح أن هؤلاء هم الإرهابيون.. جاءا لنسف فرح الزعيمين.

تفرق عدد من أعضاء جماعة مقاومة الخوف حول الإرهابيين، وكأنهم يستقبلون المدعوين.. وبدأ الحفل بالغناء والرقص.. تظاهر المدعوون «المزيفون» بتغطية أعينهم بأيديهم حتى لايروا الراقصة.. كانت أصابعهم منفرجة!!

رغب الحراس فى التأكد من شخصية الإرهابيي.. احتك بعضهم «عرضا» بالإرهابيين، وجدوا أشياء صلبة تغطيها ملابسهم، ازدادوا يقينا.. كانوا قد نصحوا العروسين ألا يحضرا.. إلا فى وقت متأخر.. سبب ذلك قلقا للإرهابيين.. نفد صبرهم.

وبإشارة من قائد حراس الحفل، انقض ثلاثة أعضاء على كل إرهابى من الإرهابيين الثلاثة، وأوثقوهم بالحبال، فى حركة سريعة كانوا قد دربوا عليها.. وفى الوقت الذى خيل للحراس أنهم سيطروا على الموقف إذا بدفقة من الرصاص تنهمر على الجمع الذى يغنى، ويبتهج، ويرقص مع المغنين والراقصات.. كان الإرهابيون قد وضعوا خطة أكثر إحكاما مما توقع

أعضاء الجماعة المقاومة للخوف.. فقد كلفوا إرهابيا آخر احتياطيا ألا يدخل من باب العمارة التى أقيم فيها الفرح.. ولكن يدخل من العمارة المجاورة.. ويصعد إلى سطحها، وفى حال فشل الثلاثة الأول يستطيع هو أن يقوم باغتيال العروسين من سطح العمارة المجاورة.

كان مقعدا العروسين شاغرين، لم يحضرا بعد.. انهمر الرصاص فجأة.. اخترق الكرسيين الشاغرين، وأسار دم الورد، الذى كان منسقا خلفهما، كان الإرهابى مصوبا نحو كوشة العروسين.. تبعثرت رصاصات عشوائية أصابت عددا من المدعوين.. ذعر الجميع.. تفرقوا.. تكدسوا على السلم.. حدثت اصابات جديدة.

فى لحظة تشبه الإلهام، فطن أحد شباب جماعة مقاومة الخوف إلى اتجاه الرصاص، فتوقع أنه من سطح العمارة المجاورة.. تسلل إليها وعبر الصور المؤدى إليها ويأتى الإرهابى من الخلف، يقفز عليه يلكمه لكمة شديدة.. كان الإرهابى قد بلغ به الرعب أقصاه.. لم يستطع أن يبادل الشاب اللكمات، كان عدد من المتفرجين قد لحقوا به، أمسكوا بالإرهابى وضموه إلى زملائه الثلاثة وذهبوا بهم متلبسين بأسلحتهم إلى قسم الشرطة.

استؤنف الحفل، وجاء العروسان يتخطران.. رقصا وغنيا مع الراقصين والمغنيين.. كانت الفرحة مثلثة: فرحة الحب يجنيان قطوفه.. وفرحة النجاة من الموت.. وفرحة الانتصار على قوى الرعب والظلام. كان الحظ حليفهما.. لم تحدث وفيات بين المدعوين، وكانت الاصابات سطحية.

(١٧)

لم يعد الخوف مجرد رسالة تضطلع بها جماعة، لتخليص الناس منه ولكنه انقلب رعبا، يقترب من فيصل وزينة.. أوشك أن يودى بحياتهما ولم يبدأها بعد!! أصبحت جماعة مقاومة الخوف كلها بؤرة الخطر.. الحق أنها فى وضع لاتحسد عليه.. اتخذت لنفسها مهمة عسيرة شاقة: القضاء على الخوف، فى مجتمع يعتبر الخوف جزءا من نسيجه الاجتماعى.. ويطيح الرعب فى كل مكان فيه.

الرعب الرسمى الذى تصبه الحكومات على الشعب أشكالا وألوانا..

الذعر الاجتماعى الذى يغرق الناس فى بحور البطالة والتخلف والفقر..

الرعب «الدينى» الذى يغتال الناس ويذبح أبناءهم.. ويهدف للوثوب إلى الحكم، ليستخدم اسم الله ودينه لاستغلال خلقه واستعبادهم، ولكى يصبح الاستغلال مقدسا.

مهمة عسيرة: المحاربون للخوف، طموحاتهم أكبر من إمكاناتهم.. الجماعة مازالت نواة لم يشتد لها عود.. ولم تورق لها أغصان.. حقا إنها تضم براعم من شباب الجامعات، لكنها براعم لم تتفتح بعد.. عن زهرات غضة، أو ثمرات ناضجات.

دعا فيصل إلى اجتماع لهذه النواة.. افتتحه بالقول: نريد أن نفكر سويا، أصبحنا فى قلب الخطر، حياتنا نفسها قد تنهيها رصاصا الإرهاب.. كيف نمضى فى الحرب التى نشنها ضد الخوف؟

وقف شاب من الجماعة ليقول:

- الحقيقة انت صعبان علىّ، يافيصل!

ويرد فيصل:

- ليه ياأخى؟!

- كان المفروض أن تكون الآن فى شهر العسل، ولم يمض على زفافك أيام ثلاثة.

- العسل الحقيقى هنا معكم، وليس هناك.

اندفعت زينة تقول:

- نعم.. نعم؟ بتقول إيه ياخويه؟

أطلق المجتمعون ضحكة عالية، كانت بدءا منعشا للاجتماع، كات الجماعة مكونة من شباب الجامعات، وفى الأقصر انضم إليها أمين، ومجموعة من العمال بالاضافة إلى بقايا من عمال مصنع النسيج، وسجن الأشغال الشاقة، الذين مازالوا صامدين مع فيصل.

ووقف الشاب الجامعى «فكرى» الذى كان عنصرا ديناميكيا فى الجماعة ليقول:

- نود أن نوسع الجماعة، ونناقش تنظيمها ومهامها.

وتدخلت فتاة جامعية أخرى «توحيدة» فى الحديث، رفعت الصوت النسائى الذى خفت حدته، لم تعد تشرعه زينة.. كانت مستغرقة فى الأحداث المروعة التى مرت بها، ربما تكون غارقة فى عسل الزواج.. قالت:

- علينا أن نكون مجموعات فرعية لجماعة مقاومة الخوف، من طلاب

الكليات والمعاهد والمدارس، ومن العمال فى المصانع والفلاحين فى القرى، ومن المثقفين والموظفين وغيرهم.

اعترضت فتاة أخرى «كوثر» طالبة من الآداب:

- السلطات ستمنعكم من تكوين تلك الجماعات.. لقد كونا جماعتنا تحت ستار جماعة الرحلات.

وردت زينة التى كانت قد بدأت تستيقظ من استغراقاتها:

- لانزاع بأن السلطة تعلم بنشاطاتنا، وهى راضية عنها.. فنحن نعاونها فى أن يسود السلام والاستقرار.. بل نعاون القائمين على السلطة فى المحافظة على حياتهم الشخصية، الإرهاب يهاجمهم، ويغتال وزراءهم ورجال الشرطة ويقتل السياح وأبناء الشعب وبناته.

وقالت «توحيدة»:

- إن حربنا للإرهاب المسلح لن تكون بالبنادق والقنابل.. فلا فلسفتنا ولا إمكاناتنا بقادرة على أن تفعل ذلك. هناك قوى أجنبية ومحلية تمول الإرهاب وتدعمه.. ولن نستطيع المنافسة فى هذا المجال، ولكننا سنستخدم الفكر لمقاومته، الأغلبية الكبرى من شعبنا كادحة والقضية الحالة بالنسبة لهم هى التخلف الذى يربن عليهم، والاستغلال الذى تصبه عليهم قلة جشعه، وتريد قلة أخرى أن تشاركها استغلال الناس بادخال اسم الله والدين فى العملية.. وكلا الفريقين يدخلان الرعب فى قلوب الجماهير.

وتدخلت كوثر:

- لذلك سوف ترحب السلطات بجانب مقاومة الإرهاب، وترفض

الجانب الفكرى، وفيه لمسات اشتراكية.

وقال فيصل:

- الحكومة متوترة.. الخطر يحدق بأعضائها وهى تبحث عن حلفاء من الجماهير لمعاونتها فى دفع الخطر، وإذا قمنا بالحملة بتخطيط سليم لا أعتقد أن الحكومة ستعترض علينا وهى فى أمس الحاجة إلينا.

وقالت كوثر:

- علينا أن نقنع الحكومة بأن الإرهاب أفرخ، حينما كان هناك فراغ فكرى.. لم يكن هناك فكر بديل يملأ ذلك الفراغ، ملأه الإرهاب بفكره، والمعركة مع الإرهاب لن تكسب بسلاح الشرطة، بل لابد من سلاح فكرى يتبناه الناس، ألا تقول الحكومة أن نظامها يتعاطف مع الجماهير، نحن نمهد الطريق أمامها، بالقضاء على الخوف الذى يعتبر أساسا من أسس التخلف.

وعاد الشاب فكرى للإسهام فى الحديث:

- يجب أن ننتقى المجموعات من العناصر الشابة.. فشباب مصر واع، يكون قوة فاعلة، إذا مااقتنع بفكرة حية، وقيادة قادرة، تعطيه قدوة سليمة.

وأكملت توحيدة:

- الدعوة كذلك مفتوحة للعناصر الناضجة، التى تتميز بروح شابة، وخبرة ثمينة.

واقترحت زينة:

- إن فى الأحزاب مجموعات شبابية منظمة، يجب أن ندعوهم لمشاركتنا، وهم قوة سياسية كبيرة.

وأنا اتفق مع الزميل فى أن نركز على العناصر الشابة، فقدامى السياسيين وزعماؤهم قد ناضلوا إبان حياتهم، وأبرزوا شجاعة فى حدود مااستطاعوا، ولكن الحملة الحالية وهى ضد الرعب والخوف ولاريب أن اعتبارات الصحة والسن قد لاتكون مواتية لخوض معركة شرسة ضد الخوف. ولذلك يبقى دورهم متركزا فى تبريك جهودنا وإعطائنا دفعة معنوية.

وأكمل فكرى:

- أعتقد أن هذا المعيار السنى لاينطبق على المثقفين.

وردت زينة:

- المثقفون فريقان: فريق السلطة.. وينطبق عليه المعيار السنى.. فالكتاب العجائز، الذين أمضوا مع السلطة زمنا، لاطائل من انضمامهم للثورة على الخوف، فهم يبثون الخوف، بطريقة أو بأخرى فى كتاباتهم.. وهم يخشون الإرهاب ورصاصة من ناحية، وكذلك يرهبون سيف السلطان، وضياع ذهبه من ناحيةأخرى.. أما الفريق المستنير من المثقفين فهم شباب على طول، ينحازون إلى الإنسان، وهم الذين علمونا كيف تقهر الخوف.

(١٨)

انتشرت الدعوة لمقاومة الخوف، فى كل مكان، أنبثت بين طلاب الجامعات والمدارس.. وانتقلت إلى المصانع والمتاجر.. أيدها العمال والتجار الصغار.. الذين اعتدى الإرهاب على أموالهم «بالاستحلال»، وعلى المسلمات القانتات المتزوجات بتزويجهن، «لأمراء» مايسمون أنفسهم

"بالجماعات الإسلامية"، وهن فى عصمة أزواج مسلمين.

اشتدت الدّعوة الشجاعة فى القرى، الفلاح يؤمن إيمانا عميقا بالله، انخدع أول الأمر بالدعوة الإرهابية، ولكنه عندما تبين أغراضها بذكائه الفطرى، انصرف عنها.. ثم تصدى لمقاومتها.

وكان لزينة جهود صادقة فى أوساط المرأة، أدركت أن المرأة عنصر قوى فى المعركة ضد الخوف.. كونت مجموعات من البنات النابهات، اللائى يشاركنها شجاعة القلب، ورشاقة الفكر، كما يشاركنها رشاقة القوام، ذهبن إلى المرأة فى أماكن تجمعها: فى الأحزاب السياسية وفى النوادى الأدبية والمراكز الثقافية المتعددة.. اتصلن بها فى مدارس البنات، وكلياتهن وفى الجمعيات النسائية.. استجابت النساء لهن لامن الناحية الإنانية والحضارية فحسب، ولكن بروح الأمومة فى أحشائهن: ألسن أمهات لضحايا الإرهاب.

لم تعترض السلطات على نشاط هؤلاء الفتيات الجسورات.. كانت تشجعهن وكان لوسائل الإعلام والصحف دور واضح فى الحملة.

هذه الحملة بين الجماهير أسفرت عن انحسار الإرهاب رصاصا وفكرا.. تخلى عنه معظم الناس.. نزعت السلطة سلاحه النارى، ونزع المحاربون للخوف سلاحه الفكرى..

تراجعت جحافله بين الناس، انكشف جانب كبير من استغلاله للمعانى المقدسة التى تربط الانسان بخالقه.

إحساس مريح يراود "المقاتلين للخوف".. جذور الخوف بدأت تجتث..

وأخذ الرعب الإرهابى يفقد أثره فى قلوب الناس.

وبينما توشك الريح أن تهب رخاء وشجاعة وأمنا، إذا بأمين ومقدام يدخلان على فيصل وزوجته زينة فى مظهر مضطرب وقلق بالغ على وجهيهما حيا أمين الزوجين:

- مساء الخير.

- مساء النور.. ماحدث.. إجلسا؟

- ليس هناك وقت للجلوس.

- ماذا جرى؟ هل انطبقت السماء على الأرض؟

- لا.. لقد أطبقت السلطات علينا.

وقال مقدام:

- كان هناك اجتماع فى حى من أحياء القاهرة، لمواصلة حملتنا ضد الإرهاب والخوف.. وفى منتصف الاجتماع اقتحم البوليس المكان، واعتقل بعض الزملاء والزميلات، وقادوهم إلى أقسام الشرطة، واقترح أمين:

- يجب أن تتركا المنزل فورا.. البوليس اقتحم بيوت الأعضاء وقبض على كثير من الشباب، ونحن نعتقد أن البوليس فى طريقه إلى هنا.. فعجلا.. ليس هناك متسع من الوقت.

ورد فيصل ردا هادئا غريبا:

- كيف أهجر بيتى؟ وهذا موطنى الذى يأوينى.. وأستمد منه الثقة والطمأنينة؟

قال مقدام:

لسنا الآن فى مجال الشجاعة والتهوين من الخوف.. ولكن معنا جماعة كبيرة.. تريد الحفاظ عليها لتمضى فى الرسالة الهامة التى تضطلع بها

- وماعلاقة ذلك برحيلى من منزلى؟

- حتى لايقبضون عليك.

- إذا لم يقبضوا علىّ اليوم فسيفعلون غدا.

- أنت القائد، ويجب المحافظة عليك لتتم الرسالة التى تضطلع بها الجماعة.

- القائد يجب أن يكون قدوة للجماعة التى يقودها.. وللفكرة التى ينادى بها، ونحن نحارب الخوف، ويجب ألا نخاف من القبض علينا.. مادامو! قد قبضوا على زملائنا يجب أن نشاركهم؟

وتساءل مقدام:

- ومن يقود الحركة؟

- الحركة ملأى بالقادة.. والجماهير المؤمنة بفكرتنا، يعتبرونها فكرتهم، وهم حماتها.

وتدخلت زينة:

- نحن حينما كافحنا لنشر فكرة القضاء على الخوف لم نكن نقصد الرعب الذى يثيره الإرهاب فحسب، بل كان كفاحنا ضد الخوف فى كل صوره، كان مصدره السلطة، أو الإرهاب الدينى.. أو حتى الإرهاب الناجم عن العادات والتقاليد والخرافات والتنظيم الاجتماعى.

لم تتم زينة حديثها إلا وقرع عصبى للباب الخارجى للشقة.. كان صوت القرع لايدل على أنه بالأيدى.. بل كان ركلا للباب بالأحذية، رغم أن للباب جرسا.. يعطى أنغاما موسيقية رقيقة!

ذهب فيصل ليفتح الباب، دون أن ينظر فى «العين السحرية»، فوجىء بمجموعة من الوجوه المغبرة تغطيها قترة.. يلبس بعضهم ملابس الشرطة، ويرتدى البعض الجلابيب.

بادره قائد المجموعة:

- أنت فيصل؟

- نعم.

اقتحمت المجموعة المنزل بشكل همجى.. لايستخدم حتى فى اقتحام «غرز المخدرات»، ولا ماخورات الدعارة.. وقف فيصل يتأملهم، يندفعون إلى غرف الشقة يفتشونها، ويبعثرون أثاثها ثم اندفعوا إلى الغرفة التى يوجد بها مقدام وأمين وزينة.. وتساءل قائد الهجوم:

- من هؤلاء؟

وأجاب فيصل:

- أصدقاء.

- من جماعتكم؟

- ماذا تقصد بجماعتنا؟

- جماعة «مقاومة الخوف».

- نعم.. لكنك تعلم أن الجماهير كلها أعضاء فى تلك الجماعة.

وتصدى مقدام للرد:

- نحن نقاوم الرعب الذى ينصب عليكم.. قبل أن ينصب على الآخرين.

- نحن لم نكلفك بحمايتنا.

زينة لاتريد أن تفوتها هذه الفرصة:

- الإرهابيون يقتلون فيكم كل يوم، وبالرغم من كونك شرطيا، فأنت لاتستطيع أن تحمى نفسك وحدك.. فالجماهير الباسلة تتصدى للإرهاب، وتحقيق الأمان، وإنقاذ رجال الشرطة، وأرادت زينة أن تنال من عجرفة الضابط وترد على الطريقة «الوقحة» التى تم بها الهجوم على منزلهم، فأكملت:

- ربما تكون أنت الضحية غدا؟

سكتت لحظة ثم أضافت:

- ونحن الذين نحميك.

زادت العبارة الضابط عنجهية ورد عليها ردا ليس «جنتلمانيا» قائلا:

- إذا تحدث الرجال فأنت تخرسين.

وردت عليه ردا هادئا:

- حركة النساء التى يبدو أنك لاتحترمها، أسهمت فى القضاء على الخوف الذى يسببه الإرهاب، فاللائى تتهكم عليهن فى حديثك، أنقذوك من القتل، وأنقذوا أولادك من أن يصبحوا يتامى.. وزوجتك أن تصبح أرملا!

كانت لهجة زينة مع هدوئها قوية، أربكت الرجل وأفحمته.. أنقذه زميل له من مرءوسيه، درجته أقل.. يبدو أن كان متعاطفا مع المقاومين للخوف ويعترف بدورهم فى مقاومة الإرهاب.. قال له:

- سيدى القائد ليس من مهمتنا أن نتحاور مع هؤلاء الناس.. دورنا هو القبض عليهم، وتفتيش بيوتهم، ويمكن للسلطات أن تسألهم.

وافق القائد، رغم أنه فى الشرطة، لايجوز للأحدث أن يناقش الأقدم، أو يقدم له نصيحة.

سيق الجميع إلى أقسام الشرطة، هناك وجدوا أن المحققين ذهبوا ليناموا فى بيوتهم.. احتجزوا فى القسم للصباح فى انتظار التحقيق، وجد فيصل فى القسم الذى ذهب اليه، مجموعة كبيرة من شباب «مقاومة الخوف».

(١٩)

جاء المحققون فى الصباح يرفلون فى حللهم الأنيقة.. وجوههم مغسولة معطرة.. بدأوا «يفتحون» المحاضر.. ويسألون المجموعة التى جلست تنتظرهم على البلاط حتى الصباح. استهلوا التحقيق بفيصل، الذى تصدى لهم قبل أن يبدأوا التحقيق معه:

- أنا سأدافع عن نفسى، إذا كنتم ستوجهون لى اتهاما.. وأنا محام، سوف أدافع عن زملائى جميعا.

رد المحقق بصلف واضح:

- يمكنك الدفاع عن نفسك، لكن غير مسموح بك بالدفاع عن الغير.

القانون يسمح لى. فأنا محامى، مسجل بنقابة المحامين.

لكنك هنا متهم.. وشريك لهؤلاء المقبوض عليهم، فلا يجوز لك الدفاع عنهم.

- من قال ذلك؟ القانون لايقول.. ومن يقول بأنى متهم؟ أنت فقط الذى تقول ذلك.. وأنت طرف فى الاتهام.. وأنا الطرف الآخر.. والمتهم- كما تعلم- برىء إلى أن تثبت إدانته بحكم قضائى.

- لن أسمح لك إلا بالدفاع عن نفسك فقط!

- سلطات التحقيق جزء من نظامنا القضائى الشامخ.. وأرجو أن يظل النظام شامخا على يديك.. أنا مصر على حقى فى الدفاع عن زملائى.. وأرجو أن تسمح لى بالقول بأنك لو سلبتنى هذا الحق فسأقاضيك أمام القضاء!

وجد المحقق نفسه أمام «متهم» من نوع جديد.. لم يجد بدا من التسليم له بحق الدفاع عن زملائه.. قال:

- لنبدأ التحقيق معك أولا.. ثم نرى ماإذا كان المتهمون الآخرون يرتضون بك مدافعا عنهم.

- هذا قول حق.

بدأ المحقق بتوجيه التهمة مباشرة دون مقدمات:

- أنت متهم بتكوين جماعة ثورية أطلقت عليها جماعة «مقاومة الخوف» وابتكرت لها نظرية تهدف لقلب نظام الحكم!

ورد فيصل بتؤده:

- ألوا: أرجوك ألا تستخدم كلمة «متهم» إلى أن تثبت «التهمة».. وإلى أن يحدث ذلك فأنا إنسان برىء.

- لقد درجنا على استخدام هذه الصيغة فى القضايا التى نحققها!

- قد يكون ذلك استخداما غير قانونى.

- ماذا تقترح؟

- يمكن استخدام عبارة «أنت موجه إليك أنك ألفت جماعة... ألخ..».

لنفترض أن هذه هى صياغة السؤال: أجب عليه.

- الجواب أننى لم أؤلف جماعة لسبب بسيط أنه ليس هناك جماعة.

- وماذا تسمى أولئك الذين قبضت الشرطة عليهم؟

- الشرطة قبضت على شعب بأسره، فالمقبوض عليهم هم جماهير الطلاب والعمال والمثقفين والفلاحين.. هل لديكم وثيقة واحدة تدل على أن هناك جماعة؟

- الشرطة لديها بعض الوثائق.

- لتعرض علينا الشرطة مالديها.

سكت فيصل هنيهة، بدا فيها أن فكرة ماتشاغله، ويتردد فى التعبير عنها، لكنه ألقى بعبارة فيها جرأة ليست غريبة عليه:

- إن الوثائق التى يقال إنها لدى البوليس تتماثل مع سلوكياته، فالبوليس تنكر للجهود التى بذلها المقاتلون للإرهاب، لقد أنقذوا أبناءهم من أن يصبحو أيتاما.. على أننا مازلنا متمسكين بمبادئنا، نفرق بين الشرطة كمؤسسة وبين رجال الشرطة كبشر.. يمكن للإرهاب أن يخرب بيوتهم،

ويرمل زوجاتهم.

أمام هذا الرد القوى، لم يجد المحقق بدا من القول:

هذه مسألة سنبحثها عند الإطلاع على وثائق الشرطة.. أجب عن الجزء الخاص بقلب نظام الحكم.. وإشاعة فلسفة تؤدى إلى ذلك الهدف.

- يبدو أن هناك «بعبع» تخافه السلطة، ذلك البعبع هو الجماهير، إذا كان المناضلون ضد الخوف يعملون فى ضوء النهار جهارا، وإذا كانت أسماؤهم معروفة فلم يخفوها.. وإذا ماتبنت الجماهير الفكرة هل القضاء على الخوف يخيف السلطات؟

إذا كان الأمر كذلك، فهذا خطؤنا.. كان يجب أن نبذل جهودنا ونوجهها لأفراد السلطة، حتى يتحرروا مع الشعب من الخوف.

ولو أن المحقق كان متزمتا شأن كثير من المحققين، إلا أنه يبدو أنه كان مثقفا، أمتعته إجابات فيصل الذكية الشجاعة، قال له:

- إننى استمتع بإجاباتك.. وهذا أمر غريب على محقق، أن يعترف لمتهم بذلك.. أسف أقصد أن يعترف به لإنسان يحقق معه.. ومع ذلك أرجو أن تقتصر الإجابة على السؤال، وذلك حتى ينتهى التحقيق فى يسر.

وأجابه فيصل:

- أنا أشكرك.. ولهذا سأتعاون معك بقدر ماأستطيع، ألا تريدنى أن أرد على هذه «التهمة» الظالمة «قلب نظام الحكم؟

- نعم تفضل.

- السلطات تتعاون مع الناس فى القضاء على الإرهاب، وقد أدى

شبابنا خدمات كبيرة للحكومة، فقد أثاروا حركة شعبية لمقاومة الإرهاب، ونجحوا فى الحد من جرائمه، كيف يكون هذا العمل الذى نتعاون فيه مع الحكومة «قلبا لنظام الحكم»؟.. هل تسمح لى أن أقول شيئا فى حدود دفاعى عن نفسى؟

- تفضل طبعا.

- كنا نحمى المواطنين من الإرهاب، وهذا ينطبق على المحققين والقضاة، فنحن عرضنا أنفسنا للخطر لحمايتكم، وحماية أبنائكم، إنى أخاطب ضميرك.. كيف توجه تهمة خطيرة كهذه إلينا؟

أيقظت كلمة «ضميرك» المحقق، فرد عليها ردا عاجلا:

- دعك من ضميرى.. ولنركز على الوقائع: الخطباء فى مجموعتكم يستغلون الحملة ضد الإرهاب ويحولونها إلى حملة ضد الخوف وأسبابه، حتى الخوف من السلطات.. أخذتم فى مهاجمته.. بهذا تهاجمون سلاحا من أسلحة السلطة، الخوف هو الوسيلة التى تستطيع بها السلطة أن تحكم الناس ويستقر بها النظام.. أنتم تنزعون من السلطة سلاحا بتارا.. وامتد تحريضكم للناس إلى عدم الخوف حتى من سلطة القضاء.

- يبدو أن الحبس الذى فرضتموه علينا مفيد.. لقد تسبب فى حوار جيد وعميق بيننا.. الخوف كما تعلم هو أخطر وباء يمكن أن يصيب مجتمعا من المجتمعات، فهو ينخر فى الذات الإنسانية نخرا، ويمتهنها امتهانا.. وينحرف بالقوى الخلاقة فى الإنسان وهو يسود المجتمعات المتخلفة، ويمكن للتخلف فى تلك البلاد الناس يخشون قهر السلطة وإرهابها للناس، الخوف يعوق

الأحزاب السياسية من السعى للحرية، والتظاهر دفاعا عن حقوق الجماهير، فهو يدعم الفساد والاستغلال والفاشية.

اكتسى صوت فيصل بمسحة من الحزن.. توقف قائلا بصوت حاول أن يكون طبيعيا:

- أنا آسف إذ أثقل عليك.

- لاعليك.. أنت فى معرض الدفاع عن نفسك. قل ماتشاء وأنا مستمع.

- أشكرك، ماذا أقول، وماذا أضيف؟ الأغلبية الكبرى من شعبنا يحلق الخوف فوق رؤوسهم فهم يخافون الفقر والبطالة وانقطاع الرزق، الخوف يازميلى يجعلنا نكذب وننافق ونسرق ونتسول، إنه يقتل فينا القيم الجميلة.

وهنا تدخل المحقق.. فاجأ فيصل المحامى بلغة لم يألفها بين المحققين كانت لغة ساخرة عميقة.. قال المحقق:

- بربك لاتمضى فى حديثك على هذه الوتيرة.. إنك توشك أن «تبلشفنى» وأصير من أنصارك.. وأنا موظف لى وظيفة ممتازة فى الدولة وأخاف عليها.

واستدرك المحقق من هذه العبارة التى عكست أبعادا ضاحكة جادة، ليقول لكاتب التحقيق:

- بطبيعة الحال، لاتدون هذا الجزء فى المحضر، ثم خاطب فيصل قائلا:

- الخوف الذى تحاربونه مسألة لاغناء عنها بالنسبة للقوانين، فالخوف من المحاكم أمر واجب حتى يحترم الناس القانون.

- قد أتفق معك وقتيا، لكن هناك جانب آخر أود الكشف عنه: فلسفة العقوبة، وماتتضمنه من تخويف، إنها تروع، فى نظرى الخارقين للقانون، المخربين لأمن الجماعة، والمجرمون من هذا النوع قلة.. والقانون يحمى الكثرة الكبرى من الناس منهم.. ويخلق لهم جوا من الطمأنينة وعدم الخوف، هذه العقوبات الرادعة ليست موجهة لتخويف تلك الكثرة.. فهم مسالمون بطبيعتهم، ينتجون ويعملون، ويرغبون فى العيش فى سلام.

إن نظم التربية الصحيحة تحث الناس على احترام القانون، وتنفيذها طوعا لا كرها.. وكلما نجحت أمة فى إقناع بيها على احترام قوانينها وتنفيذها برضا ورغبة وخاصة إذا كانت تلك القوانين تسهم فى إسعاد الناس وتوفير الأمن والعدل الاجتماعى لهم.. ألا ترى أن المجتمعات التى تنفذ فيها القوانين بقناعة وقبول أكثر استقرارا من تلك التى تستخدم فيها القوانين «كبعبع» يرعب الناس ويقض مضاجعهم؟

استمر المحقق فى المراوغة!! كأنه ليس محققا.. أصبحت الأسئلة توجه إليه.

فتح صفحة أخرى:

- ياأخى أنتم تقاتلون الخوف، والدين نفسه يتضمن آيات تخيف الناس من الله، وعقابه.

- الله خلق الأغلبية الكبرى من أبناء آدم أخيارا.. لكنه لحكمة ما أوجد قلة قليلة لكى يثيروا الفساد فى الأرض، ولكى يحفزوا الكثرة على خلق مجتمع سوى والقاعدة أن ينتصر الخير على الشر فى معظم الحالات.. لهذا

يجب تخويف الأشرار وردعهم حتى يتركوا الناس فى أمان.. ولكنك توافقنى بطبيعة الحال، على أن الله يسعده أن يعبده الناس عن طواعية وحب.. العبادة المبنية على الخوف لاتسعد الله ولاتحقق حكمته من خلق الإنسان.. الإنسان الذى يعبد الله وهو يرتعد لاتصعد عبادته للسماء.

يبدو أن المحقق اكتفى بهذا القدر.. فقال العبارة المشهورة التى يختم بها التحقيق:

- هل لديك أقوال أخرى؟

المعتاد أن المتهم يتنفس الصعداء، حينما يسمع هذه العبارة من المحقق، لكن فيصل كان متهما من نوع خاص.. أراد أن يخالف المألوف.. رد على المحقق:

- نعم.. لدى أقوال أخرى.

- لسه فيه أقوال ثانية.. حرام عليك؟

- لا.. والله.. الحرام على اللى جابونا هنا.

- تفضل ياسيدى قول.

- هناك موضوعات ثلاث!

- ثلاثة ياراجل.. اتق الله.. عايزين نروح نتغدى.

- سأختصر ولن أطيل.

- تفضل.

- النقطة الأولى: عندما حضرنا إلى هنا بالأمس قيل أن المحققين ذهبوا إلى منازلهم والتحقيق سيبدأ غدا.. من المسئول عن عدم التحقيق معنا

بالأمس: أنتم المحققون، أم الشرطة، أم من؟

كان المحقق رحب الصدر.. رد عليه ردا هازلا:

- هل تريد تخويفنا؟!

هذه القفشة لم تضحك فيصل.. كان يمكن أن يضحك لها لولا الجدية التى كان يتحدث بها وواصل المحقق:

- والنقطة الثانية:

- قائد الهجوم على منزلنا ارتكب جريمة نكراء ضد زوجتى، اقتحم الفريق الذى يقوده الغرف بأسلوب همجى، اتجه القائد إلى غرفة النوم.. حاولت زوجتى منعه، هناك أطفال رضع، «البزازات» فى أفواههم، خشيت أن يرعبهم ولما يبلغوا سن الرعب بعد.. نطر ذراعها، وصفعها على وجهها وزوجتى لاتقبل الإساءة من أى إنسان، رأيتها تتوجه إلى المطبخ لتحضر المقشة، وتتعامل معه بها، جريت على الفور أوقفها حتى لاتتصاعد الأمور.

أرجو أن تثبت هذه الواقعة فى المحضر وأن تحقق فيها.. فهذا القائد ليس رجلا ولا شهما.. انه اعتدى على سيدة.. وهذا ليس من شيم المصريين.. الرجولة تهيب بهم ألا يعتدوا على أنثى.

وبذلك يعتبر ضاباطا نذلا..

اعترض المحقق على اللفظ.. نصح فيصل بعدم استخدامه، فيه مسئولية عليه.. ورفع فيصل صوته الخفيض معلقا:

- أنا أصر على استخدام هذا اللفظ.. وأكرر هذا الضابط «نذل»، لأنه

لم يدرك أن هذه السيدة تضحى بنفسها وبأولادها حتى لايغتاله الإرهاب، ويضيع أبناؤه وزوجه.

واستعاد فيصل هدوءه ليتقدم للمحقق بالموضوع الثالث:

- أما المسألة الثالثة، فقد تكون موجهة إليك!

- لن تستطيع إرهابى.. فأنا أيضا لاأخاف.. ولو أننى لست من أتباعك.

وأسرع فيصل يقول

- وددت لو تكون!

- ماهو الموضوع الثالث؟

- هو طلب أتوجه به إليك: أن تقرر الإفراج فورا عن جميع «المقاومين للخوف»!

ورد المحقق فى عجلة:

- لاياعم.. كله إلا كده!

- مع اعترافى بأنك كنت حليما معى فى التحقيق، إلا أننى لاأتنازل عن حقوقى.

وأنا مصر على هذه الطلبات، فإن لم تستجب لها فسوف أقاضيك لسوء استعمال الحق!

أخذ المحقق بهذه اللهجة التى خاطبه بها فيصل، وأوشك أن يرد عليه ردا جافا، لولا أنه أدرك أنه أمام محام، صاحب فكرة وصلب فى الدفاع عنها.

بدا أن المحقق لايملك هذا الإفراج حتى لو كان مقتنعا به، فالجهات التى

أمرت بالقبض على المعتقلين سلطاتها «أعلى» من المحققين!! ولما كان هذا الكلام لايجوز إثباته فى محضر التحقيق، فقد التفت المحقق إلى الكاتب وقال له:

- لاتدون هذا الجزء فى المحضر.

والتفت إلى فيصل قائلا له فى همس: هذا الموضوع دقيق وحرج.. دعنا لانخوض فيه.

- حريات الناس واعتقالها وسجنها دون وجه حق «موضوع حرج»، يجب عدم الخوض فيه؟

- أنا أقصد موضوع الإفراج!

- أنا مصر على طلبى، ويجب تدوينه فى المحضر، وإلا لن أوقع عليه!

واصل المحقق همسه:

- أود أن أقول لك أننى لاأملك الإفراج!

- الذى يملك التحقيق يملك الإفراج، إذا لم تكن هناك جريمة.

- هذا فى القضاء العادى، أمر القبض عليكم أصدرته جهات أخرى، لاتسبب لى إحراجا، لا أنا ولا أنت نملك شيئا فى هذا المجال.

- على الأقل، أرجو أن تثبت حقى فى طلب الإفراج، حتى ولو كنت لاتملكه.

- ومافائدة ذلك؟

قد تكون له فائدة.

وإزاء إصرار فيصل، دوّن فى المحضر طلب المحامى «المتهم» كانت الساعة قد بلغت الخامسة بعد الظهر، وقبل أن يغادر المحقق غرفة التحقيق قال فيصل:

- أذكرك بطلبى الدفاع عن زملائى الآخرين.

وأجاب المحقق:

- قد لاتستطيع ذلك، إنهم موزعون على أقسام مختلفة، ومحققين آخرين، وقد لاتكون فى حاجة للدفاع عنهم.

- هل توضح قولك بعض الشىء؟

- سوف يأتيك التوضيح قريبا.

وغادر المحقق القسم.

كان هذا حال فيصل.. أما المعتقلون الآخرو فى بقية الأقسام فقد جوبهوا بمحققين أقل استنارة، وعوملوا معاملة غير كريمة: ضرب وتحقير ومهانة.. كان «المقاتلون للخوف» يتوقعون تلك المعاملة، جابهوها بشجاعة وصبر.. استخدموا عبارات فتت فى عضد رجال الشرطة، كانت العبارات تؤثر فى الحجارة: نحن نقاوم الإرهاب، لننقذكم من الموت، ونحمى أولادكم ونساءكم.. هناك يتخافت صوت العصى، وتكف الكفوف عن «الطرقعة».. وستلاشى التعذيب.. لاينقلب إلى ترحيب.. ولكن ينقلب إلى شعور بالخزى من شباب ينافح عنهم وعن أسرهم.. على أن بعض رجال الشرطة كانوا يعاملون المعتقلون كرجال، معاملة كريمة شهمة.

(٢٠)

اتخذت إجابات المناضلين ضد الخوف مسارا مشابها لإجابات فيصل.. لم يكن ذلك عن إتفاق بينهم، فلم تكن الجماعة تنظيما دقيقا له دستوره وخطته فى نشر أفكاره.. ولكنها كانت تجمعا شعبيا انبثق من جماعة الرحلات فى الجامعة، ثم سرى الى التجمعات الجماهيرية التى شغفت بالفكرة: التخلص من الخوف، الذى يشوه الإنسان ويستلب منه هويته كإنسان..

أدت السلطات لمقاومى الخوف خدمة كبيرة جمعتهم فى مكان واحد فى المعتقل لأول مرة!! أتاحت لهم فرصة تنظيم أنفسهم.. على أن قادة الحركة أصروا على أن تظل المجموعات علنية، فهذا حقها الديمقراطى فى مقاومة الخوف..

وحينما تتلقف الجماهير الفكرة فهذا حقها الدستورى لايستطيع أحد أن ينازعها فيه.

العلنية كذلك تقوى الدعوة ضد الخوف.. هناك اتساق بين فلسفة الدعوة والقائمين ببثها بين الناس: إنهم لايخافون السلطات.

ظهرت هذه المعانى فى التحقيق مع زينة، كان المحقق معها عنيفا متحيزا، قال لها:- أنتم تقاومون الخوف والإرهاب ولكن بفكر جديد يحل محل الفكر الإرهابى!

وأجابت بتؤده، مصحوبة بشىء من الحماسة:

- طبعا، الإرهاب لن يقضى عليه بصفة أساسية إلا فكريا.

- لكن فكركم، قد يكون أخطر من الفكر الإرهابى.

- كيف بربك؟

- فكركم ينزع الخوف من الجماهير، وهذا يشجعها على عصيان السلطة، التى تلجأ للخوف للسيطرة على الناس.

سألته زينة سؤالا.. وكأنها هى المحقق:

- هل تؤمن بالديمقراطية؟

- نعم.

- إذن.. أنت توافقنى على أن الديمقراطية هى حكم الأكثرية الجماهيرية، وهذه تتطلع للطمأنينة ورفض الخوف.

- هذا كلام عام!

- إذا أردت كلاما مباشرا، من حق الكثرة الشعبية أن تضع فى الحكم ممثليها الحقيقيين.. هؤلاء الممثلون يكفلون الأمن والرخاء.. وانتفاء استغلال الإنسان للإنسان، وهذا لايتم إلا باجتثاث الخوف من السلطان.

- هكذا أنت تعترفين بأنكم تعملون على قلب نظام الحكم.

- الجماهير صاحبة الحق فى الحكم الديمقراطى، وتغيير الحكومات جوهر الديمقراطية، إذا ماأرادت الأغلبية ذلك التغيير.. بل إن الأمة تملك الدستور فهى تستطيع تغييره أو تعديله، ليتسق مع مصالحها، ولايستخدم لصالح القلة.

توقفت زينة برهة لتعود لموضوع الإرهاب:

- إن مقاومة الإرهاب جزء أساسى من مهمتنا.. نحن نحاول ألا يقتل

القضاة والمحققون، والمثقفون وغيرهم.. دعنا نركز على الهدف القريب أما الهدف البعيد فسيحققه الشعب فى موعده.

- لا.. أنا مهتم بالهدف البعيد!

كانت زينة حتى الآن مترددة فى أن تقذف فى وجه المحقق بحقيقة مثيرة.. لكن موقف المحقق دفعها لتفجيرها.. قالت:

- هل تعلم سيادتك أن زوجتك منضمة لهذه الحركة الجماهيرية «المقاومة للخوف»؟

أخذ المحقق على غرة، لم يكن يدرى عن هذا النبأ شيئا.. زوجته واحدة من المثقفات اللائى يكون جماعة نسائية تهتم بالفنون والآداب، وصلت الدعوة لمقاومة الخوف إليهن.. كانت من أوائل النساء اللائى تطوعن لنشر هذه الرسالة.. وعندما تمالك نفسه قال لزينة:

- هذا أمر خاص، لايجوز إدخاله فى التحقيق، نحن هنا أمام تهمة موجهة إليك.. التزمى بالاجابة عليها.

- اسمح لى بالقول بأن الخوف كان يتلبس الناس جميعا، بما فيهم المحققين، وقد لبت زوجتك الدعوة لسببين: الأول أنها أم، وزوجة لمحقق معرض لرصاص الإرهاب، ومن حقها كإنسانة أن يقضى على الإرهاب، الذى يمكن أن يخطف منها أعزاءها، وهى ثانيا مثقفة ومستنيرة، ترى فى الخوف كابوسا، يمتهن الإنسان، ويعوقه عن التحرر.

عندما وجد المحقق أمامه متهمة عنيدة، خاف من توريطه وتوريط زوجته فى هذه المشكلة، فعجل بإنهاء التحقيق قائلا:

- هل لديك أقوال أخرى؟

- نعم!

- ماهى؟

- أن تثبت هذه الأقوال الأخيرة فى محضر التحقيق.

- هذا ليس من شأنك، أنا المسئول عن التحقيق ومحضره.

- ولكنى لن أوقع على المحضر مالم تثبت فيه ماقلته.

هنا تلاشت شجاعة المحقق، وعنجهيته، التى يلقى بها أسئلته إلى زينة.. تراخى عنفه، وقال بصوت فيه رقة:

- أنت تعلمين أن هذا سوف يضطرنى إلى استدعاء زوجتى للتحقيق معها.. وأنت كقائدة حركة لاتريدين الإضرار بالمتعاونين معكم على إنجاحها.

ردت عليه زينة بلهجة رقيقة كذلك ولكنها لهجة واثقة.. تطوى فى ثناياها لونا من التهكم:

- أتخاف على زوجتك أم تخاف على وظيفتك؟

اضطر المحقق العنيف أن يجيب بصوت أرق، تصاحبه ابتسامة شاحبة:

- أنا خايف على الاثنين!

- كنت أتمنى ألا تخاف، فأنت شاب دراس للقانون والدستور، وددت لو كانت لك شجاعة زوجتك، وتنضم إلينا فى جهودنا لتحرير الإنسان فى بلدنا من الخوف، الذى يلازمه فى الصباح والمساء.

- ....

لم تكن زينة تريد أن تتشفى فى المحقق، فهى تعلم أنه أسير الوظيفة، لكنه متعلم، ويمكن أن يلقن درسا ضد الخووف، قالت له:

- لاتخف على زوجتك، إنها شجاعة مؤمنة بدورها، وتعمل على تحرير مواطنيها من الخوف القاتل لمواهبهم.. إننى أقترح عليك محادثتها فى التليفون، وستتحقق من صحة ماأقوله لك.

- أرجوك.. كفى حرجا!

- هل أدلى إليك بأمر آخر؟

- إننى أخاف من أمورك!

- مادمت تستعمل كلمة «أخاف».. فسأخبرك بهذا الأمر، لعله يفتت الخوف الذى تراكم داخلك، والذى تسرب إليك من المجتمع ونظامه ووظائفه، حتى الوظائف العليا التى تشغل إحداها:

- «شوف» أيها السيد المحقق، زوجتك المستنيرة اتصلت بى بالأمس واقترحت أن توكل محامين عنا.. لعلك آخر من يعلم.. لقد عرضت أن تدفع هى «أتعاب» المحامين!!

عند هذه النقطة من التحقيق، الذى انقلب حوارا، رجا المحقق زينة أن يختم المحضر دون أن يدون فيه هذا الجزء الأخير، اشترطت زينة عليه شرطا:

- أوافق بشرط أن تعدنى، أن تفكر فى دعوتنا بهدوء، خارج الوظيفة، وأن تبلغ تحياتى وفخارى بزوجتك.

- حاضر!

- موضوع أوشكت أن أنساه.. هناك ضابط «وقح» صفعنى على وجهى فى منزلى عندما هاجمونا هجوما بربريا.

- لكنك تستخدمين ألفاظا قد تساءلين عنها، بالإضافة إلى أنك لن تكسبى القضية ضده، لأنك لاتستطيعين إثبات هذه اللطمة.

- سيشهد زوجى وبعض أصدقائه، كانوا عندما ساعة الهجوم على المنزل.

- زوجك، لاتقبل شهادته لمصلحتك، المحكمة ستشك فى شهادته، أما رجال الشرطة الذين هاجموا منزلكم فلن يشهدوا ضد رئيسهم.. «كلهم بوليس»!

أخذت زينة تفكر لحظة، احمر وجهها، كان اللون الأحمر ينساب فيه بسرعة، نظرا للونه العاجى الجميل، ثم بدا عليها أنها وجدت الجواب، قالت المحقق:

- أرجو أن تستدعى طبيبا شرعيا أو غير شرعى، لإثبات اللطمة، هذه أصابع المعتدى، مازالت على خدى، كان يدا خشنة قذرة شوهت وجى.

تردد المحقق، فعاودت التوكيد:

- أنا مصممة، على هذا الطلب، أرجو أن تستدعى الطبيب الآن، وأن يكشف على.. ثم يذهب لمعاينة أصابع هذا الضابط، وأن يتحقق من قذارتها، قبل أن يغسلها، وهو قليلا مايفعل!

- لو قبلت نصيحتى، هذا مجهود ضائع.

قضت زينة على تردده بقولها:

- هذا شرطى الوحيد.. لكى أوافق على حذف الجزء الخاص بزوجك من المحضر.

عندما رأى المحقق إصرارها، أسرع إلى التليفون يستدعى الطبيب، وأمر السكرتير بإثبات هذه الحالة فى المحضر.

(٢١)

وجد فيصل نفسه فى بؤرة من بؤر الرعب مرة أخرى.. فى المعتقل الذى استضافه، وصحبه من عمال مصنع النسيج، كانوا يطالبون بحق الاضراب، وينافحون عن مستوى أجورهم، وحياتهم التى وصلت إلى حضيض ليس بعده تدهور!! التعذيب ترك فى أجسادهم وهادا.. تبقى دليلا على الرعب.. لايقتصر أثره على الذين تعرضوا له، ولكنه يمتد إلى إرهاب الذين لم ينعموا به بعد!

أصابته خيبة أمل كبيرة، إنهم يرعبونه وزملاءه وهم يعاونونهم فى مقاومة الإرهاب.. الإرهابيون مازالوا يقتلون الضباط والعساكر، ويسفحون دماء البرءاء من الناس.

لم يقدروا صنيعه، إنه يقول مايقولونه عن الإرهاب.. بل إنه يعمق الفكرة.. وينادى بمحاربة الخوف، يعطى النضال ضد الإرهاب لمسة فكرية.. يتخذ من الديمقراطية، سبيلا له كما يتخذون، الجماهير الكادحة والمثقفة هم الأكثرية، والحكم فى الديمقراطية للكثرة.. والكثرة فى الحكم الديمقراطى لايمكن أن تخاف!

لم يكن الرعب فى المعتقل مفاجأة له، فهو لم يثق أبدا فى السلطة!! كانت حملة الرعب الأولى ضد العمال مصدرها السلطة، وماالإرهاب الدينى إلا ناتج لنظام، تسبب هو نفسه فى نشوئه.. إنه يدرك أن حملة مقاومة الخوف تخيف اللطة، فهى تستند إلى الرعب لتحكم الناس، لكن الإرهاب الدينى يهدد وجود الدولة، ويغتال ممثليها.. وقد استعانت الدولة بحركة مقاومة الخوف وتحققت نجاحات واضحة ضد الإرهاب: «لماذا يعتقلوننا»؟

يبدو أن السلطات رأت أن الإرهاب تراجع.. ولهذا تبرز خطورة هذه الجماعة «المقاومة للخوف».. ذلك أنها اذا استلت الخوف من نفوس الناس، ماالذى يتبيقى للسلطة من أسلحة لكى تقهرهم؟ الخوف هو السلاح البتار الضرورى لاستقرار الحكم.

هذا «المونولوج» خفف كثيرا من همومه.. بعد هذه السنين من مكافحة الخوف، على المستوى السلطوى وعلى المستوى «الدينى» الإرهابى لم يعد الخوف يشاغله، ولا المعتقلات ترهبه، لم يعد كذلك قلقا على زملائه من الشباب، أصبحوا أشد منه جسارة وجرأة، فهم أصغر سنا، وأكثر اندفاعا.

ومع ذلك مضى يتأمل ظاهرة الخوف، فى المعتقل فريقان: فريق السلطة الذى يبث الخوف فى قلوب المعتقلين، وفريق المعتقلين الذين يصارعون الخوف، بدا له أن الظاهرة فقدت حدتها، التى كانت عليها عندما شرف المعتقل فى المرة الأولى، هو وزملاءه العمال.

الإرهاب الدينى يوجه جهوده نحو السلطة وأفرادها: الضباط والعساكر

الإرهاب الدينى يوجه جهوده نحو السلطة وأفرادها: الضباط والعساكر الذين تستخدمهم السلطات فى إثارة الرعب فى قلوب السجناء، أصبحوا ضحايا، يتساقطون صرعى برصاص الإرهاب.. لهذا فهم يتعاطفون مع الشباب «المقاوم للخوف».. ينظرون إليهم كأبطال، يسهمون فى حمايتهم وحماية أبنائهم، لذلك أصبح عدد منهم لايسهم فى جرائم التعذيب.

كذلك، فإن عددا من هؤلاء الضباط الواعين، لم يعودوا يعبأون كثيرا بالخوف، الذى تفرضه المؤسسة ورؤساؤها عليهم.. كان هذا فى نظر «المقاومين للخوف» كسبا كبيرا.. لكن بعض ممثلى السلطة مازالوا ذوى وعى مريض مازالوا يرهبون المرءوسين.

كان اعتقال زوجته مصدر ألم له.. ليس لها عهد بالاعتقال.. أصبح فؤاده مقسما: تارة يخشى عليها من التعذيب التى مازالت له تطبيقات حتى فى المعتقلات النسائية، وتارة أخرى يسترجع ثقته فيها.. فهى لاتقل عنه صلابة أو إيمانا بالقضية.

مكث «المقاومون للخوف» فى المعتقل شهرا ونيف.. لايعرفون لهم جريمة اللهم إلا إذا كانت مقاومة الإرهاب جريمة!! وإذا كانت كذلك فالسلطات شريكتهم فيها، يبدو أن السلطات لم تسبر أغوار الإرهاب، لم تكتشف أبعاده.. خيل إليها أنها قضت عليه، ووضعت نهاية لشروره، لكنه كان يعيد تنظيم أفراده، ويرسم خطة جديدة للاغتيالات.. وبدأت السلسلة:

اغتيل مثقف وطنى كبير وهو يغادر منزله للإسهام فى مناظرة أعدت للحوار مع الفكر الإرهابى، أسكتوا صوته خوفا من الاستماع إليه.. فى

اليوم التالى أطلق الرصاص على صحفى شهير من أكبر دعاة النظام القائم، لكنه نجا، وأصيب من حوله.. هوجم رئيس مجلس الشعب، فى موقع استراتيجى على شاطىء النيل، بالقرب من قلاع السياحة، ذات الخمسة نجوم.. قتل هو وحراسه وسائقه.. تصدى الإرهابيون لوزير الداخلية نفسه.. على مقربة من حصنه المنيع: وزارة الداخلية.. ثم اغتيل عدد كبير من ضباط الأمن الكبار والصغار، فى مواقع متفرقة من البلاد.

عادت الصورة البشعة للإرهاب مرة أخرى.. هلعت السلطات.. ماالعمل؟

بذلت جهود أمنية تقليدية، قوبل الرصاص بالرصاص والمشانق، والمحاكم لعسكرية ومحاكم الطوارىء.. سرى القلق إلى الناس، أخذ الاستقرار يهتز.

تراخى حماس الناس، لمعاونة السلطة ضد الإرهاب، علم الناس بما صنعته السلطة بالشباب المحارب للخوف، وعندما ضيق الإرهاب الخناق على السلطة، اضطرت للاستنجاد بالجماعات المناهضة للخوف.

بدأت الاتصالات بالشباب فى المعتقلات، رفض الشباب عروض السلطة للتعاون معها، كان الرد: أنتم غدرتم بنا.. لن نعاونكم مرة أخرى، وعرضت الحكومة الافراج عن المعتقلين جميعا، إذا تعهدوا بالاشتراك فى الحملة ضد الإرهاب.

على أن فيصل وزملاءه من طليعة المقاتلين للخوف، اتصلوا بالشباب ليوافق على مجرد «الحوار» مع السلطات، «لنرى ماذا يقولون، ثم نقول لهم

مانشاء».. قبل الشباب الحوار.. اختيرت مجموعة منهم لحضور اجتماع عقد فى مبنى وزارة الداخلية.. بدأ الوزير الاجتماع قائلا:

- إننا نجتمع لا لنهيب بكم، لتؤدوا واجبا وطنيا، وهو مقاومة الإرهاب، إنهم يقتلون أخوتكم من رجال الشرطة، ومن أبناء الشعب الأبرياء.. لقد قمتم بهذا الواجب من قبل.. ولاشك أنكم ستنهضون به ثانية.

ترك فيصل ورفاقه المخضرمين «الحوار» ليتولاه الشباب، تصدى «مقدام» وهو شاب جسور فارع القامة عريض المنكبين، جاء من مدرسة ثانوية صناعية، تصدى للإجابة:

- دعنى أكون صريحا معك ياسيادة الوزير.. أنتم لم تعترفوا بالجميل.. وبالعمل الذى قدمناه لكم فى مقاومة الإرهاب.. غدرتم بنا.. اعتقلتمونا.. خيبتم ظن الجماهير التى صدقتكم، ولبت دعوتكم لمحاربة الإرهاب، ألقى بنا ضباط الشرطة فى السجون وضربونا بالكرابيج، ومع ذلك تقول لنا أن ننقذ «إخوتنا» ضباط الشرطة الذين يقتلهم الإرهابيون.

رد الوزير ردا غير مألوف من وزير للداخلية.. فشاغل هذا المنصب «بعبع» يرعب الناس:

- أحب أن أعترف لك بأننا أخطأنا خطأ فادحا فى حقكم.

ثم ألقى بمفاجأة لم يتوقعها أحد من الحاضرين:

- أود القول بأن هذه الاعتقالات تمت دون علمى.. ودون إرادتى!

ورد مقدام عليه:

- هل هذا معقول؟ الرجل الأول المسئول عن الأمن الذى يتعامل مع

جميع القوى السياسية ويودع المضادون للحكومة فى الزنازين المظلمة.. هذا الرجل لايدرى شيئا عن اعتقالنا؟

ورد الوزير:

- بشرفى لا أعلم.

- نفترض أنك لاتدرى بأوامر القبض علينا.. لكننا نعمنا بضيافتك أكثر من شهر.

هل لم تراجع أولئك الذين ألقوا بنا فى هذا الجب الكبير الذى يقع فى اختصاصك؟

وتدخل أحد معاونى الوزير باستياء:

- سيادة الوزير أقسم بشرفه أنه لم يعلم، وأنت سوف تدخلنا فى تساؤلات من العسير الإجابة عليها.

واشترك فكرى: شاب فى الثالثة الثانوية، وجه دقيق الملامح، قامة متوسطة، اشتهر بين زملائه بالقراءة والاستنارة، أسهم فى معظم الحركات الوطنية والاجتماعية التى مرت البلاد بها.

- مع من إذن سنتفق.. إذا كان المشرف الأعلى على الأمن ليس هو المسيطر على المعتقلات لا على الداخلين إليها ولا الخارجين منها؟

توقف فكرى هنيهة، قال بعدها مندفعا:

- هب أننا خرجنا من المعتقل، وأسهمنا فى مقاومة الإرهاب، ثم جاءوا بنا إلى المعتقل ثانية، كيف نثق فى الوعود التى تعطى لنا؟ وماهو الضمان لتنفيذها؟

وتحدث الوزير:

- أنا لاأتحدث لكم باسمى فقط، ولكن باسم الحكومة، وأنا أضمن لكم كل كلمة أقولها هنا.

وتدخل مقدام:

- دعنا ياسيادة الوزير نبدأ بالأمور الصغيرة، ثم ننتهى إلى الموضوعات الكبيرة.

ورد الوزير بأدب جم:

- تفضل!

- أنت تعلم- وإن كنت لاتعلم فتلك مصيبة، أن كثيرا من زملائنا عومل معاملة مهينة، ضربوا بالكفوف، وركلوا بازحذية، ونحن لم نقترف إثما.. الإثم الذى نعترف بارتكابه هو أننا كنا نحمى «اخوتنا» رجال الشرطة الضاربين لنا من الموت، ونحمى أبناءهم من اليتم.

أبدى الوزير استياءه:

- متى حدث ذلك؟

- حدث عند إلقاء القبض علينا، وعندما جئنا إلى المعتقل، ومازال يحدث.. يمكن أن تراه بنفسك، إذا تفضلت بزيارتنا زيارة مفاجئة.

- هل تستطيع أن تثبت ذلك؟

- الذين عانوا من الأدوات الثقيلة فى التعذيب، يمكن أن يكتشف ذلك على أبدانهم، والإهانات الأخرى غسلها الوقت كيف نثبتها؟

ودخل شاب آخر فى الحوار «عمر»: شاب ريفى فى العشرين.. أسمر

البشرة، ملامحه فجة.. مازال تراب الحقول عالقا بجسده، صوته أجس.. قامته قصيرة، لكن عضلاته مفتولة، فتلها الفأس والمحراث، و«محشة» البرسيم.

- نحن شرفاء، كنا نسهم فى أشرف معركة لحماية الوطن من الإرهاب الغاشم، لذلك فشهاداتنا صادقة، ونحن نعرف من الذين ضربونا وامتهنونا.. نعرف أشكالهم وأسماءهم، وقد أعددنا قائمة بهم!! هؤلاء يجب معاقبتهم، وأن ينشر العقاب فى الجرائد.

- كيف نعاقبهم دون شهود.

- نحن الشهود، ونحن أمناء.

- أنتم المبلغون وأنتم طرف فى الخصومة، لابد من شهود محايدين.

وجاء دور «أمين» ليقول بجرأة لم يقلل منها جسده النحيل، فقد كان جسور القلب:

- آثار الضرب موجودة، والمضروب يعرف من ضربه، ونحن نطالب بعقوبات معتدلة جدا، لانريد أن يضرب الضارب، ولكن نريد عقوبة واقعية فعالة: الضباط الذين عذبوا المعتقلين وامتهنوا إنسانيتهم، يفصلون من الشرطة، وأجهزة الأمن وأ يعلن ذلك فى الجرائد، لكى يردع المعتدى، ويزجر الآخرون.

- لكن كيف ندين الناس من غير دليل قانونى؟

واشترك فيصل:

- ياسيادة الوزير.. نحن لم نطلب محاكمة جنائية للضاربين لنا،

وإيداعهم السجن.. نحن نطلب فقط طردهم من شرف خدمة الأمن.. وهى عقوبة أدبية، وليست جنائية، حقا إنهم سيعانون من البطالة.. لكن لعل المعاناة تجعلهم يسهمون فى إقامة مجتمع عادل، يخلو من البطالة والخوف والتعذيب!

وقال الوزير:

- ياأستاذ فيصل، أنت من المعتدلين، أرجو أن تساعدنا.

وعلق فكرى:

- يكفى الأستاذ فيصل نبلا أنه لم يقل لسيادتك عن الضابط «النذل» الذى صفع زوجته على وجهها حينما اقتحم منزلهما، بطريقة همجية للقبض عليهما.

وتأفف الوزير:

- كيف يحدث ذلك؟ هذا كثير!!

وعقب الشاب فكرى:

- إنهم رجالك ياسيادة الوزير.. هذا الضابط لابد من محاكمته أمام مجلس عسكرى، والعقوبة التى نطالب بها هى العزل، والفصل من الخدمة والسجن.. ذلك أنه فقد الرجولة والشهامة التى يتماز بها المصريون، اعتدى على امرأة، وهى أكثر منه ثقافة، وهى بطلة كانت تقاوم الإرهاب وتمنع رصاصه أن يصرعه.

ورد الوزير:

- سوف أبحث فى هذا الأمر.

وقال أمين:

– لا.. هذا أمر نبحثه سويا.. ومطلب لانتنازل عنه.. يجب أن تتحقق مطالبنا، قبل أن ننفذ ماتريدون.

وأجاب الوزير:

– هب أننا وافقنا على ماتطلبون..

وعلق فيصل:

– أنا مدرس لغة عربية.. «هب» هذه تدل على افتراض أو تصور.. نحن لانطالب بتصورات.. بل بأمور يجب تنفيذها، ونريد ضمانا لهذا التنفيذ.

وقال مقدام:

– نحن لانقبل ضمانات، السلطة التى تغدر بحلفائها لاأمان لها، نحن لن نغادر هذا المعتقل، إلا وطلباتنا قد تم تنفيذها، المجلس العسكرى يعقد غدا، وأنتم متمرسون على هذا النوع من المحاكم، تقيمونها فى طرفة عين، وتصدر الأحكام فى طرفة عين أخرى.

وتعهد الوزير:

– قبلنا ماتطلبون وسوف ننفذ.

وتقدم أمين بطلب آخر، غير مألوف يبدو أنه اتفق عليه مع فيصل وزملائه:

– ماهو الضمان بأنكم لن تنكصوا علينا مرة أخرى؟

– لقد أعطيتكم كلمة «شرف»!

ورد عمر:

– نرجو ألا تذكر كلمة «الشرف» فى هذا المجال!

– أنا الوزير أعطيكم هذه الكلمة!

وعقب عمر:

– سيادتك قلت من لحظة.. أنك لم تدر باعتقالاتنا وكأنك آخر من يعلم.. لهذا اقترح ألا ترتبط فى هذا المجال «بكلمة الشرف».

بانت الحيرة على وجه الوزير، وقال:

– ماذا يمكننى أن أفعل؟

وكان لدى فيصل فكرة غريبة:

– تمضى سيادتك معنا عقدا مكتوبا على أن الدولة لن تعتقلنا مرة أخرى، كمجموعة تقاوم الخوف!

وطالب مقدام بطلب آخر:

– وأن تتعهد الدولة بمعاونتنا فى الحملة ضد الخوف عن طريق أجهزتها جميعا.. بهذا يتحقق حلم الناس فى إزاحة هذا الكابوس عن صدورهم، ويقوم أساس مكين للديمقراطية.

كانت الطلبات تترى الواحد بعد الأخر على الوزير، ولكنه كان أمينا فى إجابته:

– أنا لاأملك الموافقة على كل هذه الأشياء، فأنتم لكم فكر مضاد للفكر الإرهابى، وهذا فكر يدخل فى المجال السياسى، وأنا لاأملك هذا المجال.

– هل سيكون دورنا كدور الشرطة: مقاومة الإرهاب بالسلاح مثلا، أو أننا سوف نقاومه مقاومة فكرية فعالة، عن طريق الهجوم على الأفكار

الإرهابية ذاتها؟

وقال الوزير بعد تردد:

طبعا، أنتم سلاحكم الفكر.

وأعقبه فيصل:

- إذن المقاومة الفكرية والمادية مترابطتان، وأنت تملك الاتفاق عليهما.

- ياأستاذ فيصل، أنت رجل قانو، وتعلم أن هناك سلطات أعلى من وزارة الداخلية.

- أعرف ذلك تماما، ولكنك أمامنا لست وزيرا للداخلية فحسب، بل تمثل الحكومة.. ونحن نريد أن نتفق على الموضوع برمته.

نظر المجتمعون إلى الوزير، يريدون أن يدرسوا ملامحه.. لكنه كان بعيد الأغوار.. قال:

- إننى أقبل طلباتكم جميعا!

وقال أمين:

- هل ستوقع معنا عقدا يتضمن هذا الكلام؟

- ومافائدة العقد، هل ستطالبون الدولة بمثل هذا العقد الفريد؟

وقال فيصل:

- هو عقد غير عادى، لكنه قد يكون نافعا.

ورد الوزير واثقا:

- إذا أردتم، هذا هو توقيعى.

كان فيصل ورفاقه يعلمون أن السلطات يمكنها أن تنقض أى اتفاق،

وأنها يمكن أن تغدر بالجماعات المناهضة للخوف، بعد أن يؤدوا مهمتهم، ومع ذلك فقد أصروا على التوقيع على العقد بواسطة الوزير.. فسوف يظهر الاتفاق فى الجرائد، ويعلن فى الإذاعة والتليفزيون، وفى هذا نشر لأفكار الجماعة وإعلان عن وجودها بواسطة الدولة نفسها، ولن تخسر الجماعة كثيرا، فهى تقاوم الإرهاب والخوف.. رضيت السلطة أم لم ترض.

أعلن الاتفاق فى الجرائد، والإذاعة والتليفزيون، فى اليوم التالى أصبحت جماعة مقاومة الخوف حقيقة يعترف بها الجميع.. أفكارها تتناقل بين الناس، ووجد لها رأى عام قوى.. وأفرج عن المعتقلين جميعا، وحوكم الضباط الذين امتهنوا إنسانيتهم.

ومع ذلك لم يطمئن «المقاتلون للخوف» لوعود السلطة، يمكن أن تعود لاعتقالهم مرة أخر، لهذا ترددوا فى الاستجابة العاجلة لنداء السلطات.. كان همهم الحقيقى هو مقاومة الخوف بصفة عامة.. لهذا كانت مقاومتهم للإرهاب وئيدة.

على أن حادثا جللا وقع لنائب الحاكم، هاجمه الإرهابيون وهو يمضى فى موكب طويل من السيارت، وعربات الحراسة وموتوسيكلاتها، وضعوا متفجرات فى طريقه.. أحدثت دويا مروعا، أصاب سكان حى بأسره بذعر شديد.. كان نائب الحاكم محظوظا، أخطأه الموت ببضعة أمتار.. قتل أطفال ومواطنون أبرياء.

على أن ضحية أخرى للإرهابيين هزت الجماهير فى كل ركن من أركان الوطن.. حاول الإرهابيون ذبح شخصية أدبية رفيعة المستوى.. تعتبر رمز

من رموز الثقافة فى مصر، وعنصرا فى حركة التنوير والتقدم فيها.. أحبه العالم فمنحه أرفع جائزة، ومنحته الجماهير العربية ودها، حتى أولئك الذين يختلفون معه فكريا.. إنسان سمح، مهذب، بالتعبير البلدى «سكرة»!

كان هذان الحادثان نذيرا قويا لجماعة مقاومة الخوف أن تدفع عنها الركود الذى أصابها فالإرهاب الأسود يحاول ذبح الثقافة المصرية والعربية!! لقد أغمد سكاكينه فى عنق «المثقف» الكبير، لقد أحس الشباب «المقاوم للخوف» أن الطعنة أصابته هو فى عنقه.

هرع نائب الحاكم وبعض معاونيه ليلتقى بجماعة «مقاومة الخوف».. لقد هزت محاولة الاعتداء عليه أعصابه هزا شديدا، أدار الحديث بنفسه، وركز على الحدث الخاص به:

- ها أنتم ترون أن الخطر قد وصل إلى قمة الدولة، لقد وصل إلينا!

وقاطعه أحد الشبان المتحمسين قائلا:

- ومالفرق بينك وبين الأبرياء الذى يقتلون كل يوم؟

لحسن الحظ، كان فيصل يعلم اندفاعات هذا الشاب، فتحدث يرد ع النائب فى الوقت نفسه، كان صوته جهوريا غطى على صوت الشاب:

- أنت شرفت مكانا المتواضع، أهلا بك، ضيفا على هذه الغرفة، التى يولد فيها فكر سيقهر الخوف فى المجتمع كله.

وأجاب نائب الحاكم فى لهجة قلقة:

- متى ستقهرون الخوف، والإرهاب يقرع أبوابنا؟

- الحرب ضد الخوف طويلة.

واندفع نائب الحاكم يقول فى صوت مهزوز:

- نحن لاشأن لنا بالخوف العام.. مهمتنا هى الإرهاب الذى يهدد حياتنا الآن.

وعقب أمين:

- أنتم مهمتكم محاربة الإرهاب الآن.. لأنه يصوب رصاصه لصدوركم، ولكن مهمتنا أكبر من ذلك، محاربة «الإرهاب الدينى»، وأى إرهاب أو رعب آخر.. يصوب رصاصه إلى صدور الملايين من أبناء هذا الشعب.

نظر نائب الحاكم إلى وزير الأمن قائلا:

- أهذا هو الاجتماع الذى دعوتنى للمشاركة فيه؟

وأجاب الوزير:

- عفوا ياسيدى النائب.. أنا ناقشت هذه المسألة معمم فى الاجتماع السابق، ووصلنا إلى حل.

وعقب مقدام:

- كان الاتفاق على حملة لمحاربة الخوف كله، وليس الإرهاب «الدينى» وحده.

اندفع نائب الحاكم يعقب.. قال فى صوت متشنج:

- مقاومة الخوف إيه؟! أنا غير موافق على الحرب التى تشنونها ضد الخوف، أريدكم فقط أن تحاربوا الإرهابيين معنا!

كان تدخله المتسرع قد فجر فى الاجتماع قنبلة.. كتلك التى انفجرت فى

موكبه. كان الأثر متماثلا: القنبلة التى انفجرت فى موكبه، قتلت وأصابت مواطنين أبرياء.. والقنبلة التى فجرها فى الاجتماع، أصابت كثيرا من الشباب بذهول، وواصل النائب كلاما كالرصاص:

- الخوف الذى تتحدثون عنه قوة نستخدمها لحكم الناس، هو سلاح مسنون فى أيدينا، لن نتخلى عنه، التخلى عنه يعنى ترك الحكم.

وتمادى النائب فى تهكمه قائلا:

- هل بلغت بكم السذاجة أن تطلبوا منا أن نشترك معكم فى حملة لمقاومة الخوف؟

وتصدى له مقدام:

- ألا تخاف أنت من أى شيء آخرى سوى الإرهاب الذى حاول قتلك منذ أيام؟

نائب الحاكم كان عصبيا أثناء إجاباته، إلا أنه عدل من لهجته ليجيب على هذا السؤال:

- هذا سؤال ذكى، سوف أجيبك عليه، لابد أن أكون صريحا معكم، إذا وصلنا إلى اتفاق، سأصارحكم بكل شيء.

- لقد اتفقنا مع وزير الأمن، ونحن عند وعدنا، فهل تمضى بمصارحتنا بالحقيقة، فقد أصبحنا حلفاء.

كان نائب الحاكم قد انتابته موجة صدق، ومصارحة، ليست مألوفه عنه قال:

- مقاومة الخوف فى مجتمعنا موضوع عويص، لابد لكم أن تغوصوا

فى جذوره: فى نظام التعليم، فى الأسرة والعلاقات بين أفرادها، فى النظام الاجتماعى والسياسى، فى الفقر الذى يرعب الناس، ويهددهم بالجوع والبطالة والضياع، فى المصنع والمزرعة، فى المسجد والكنيسة، حيث يرهب الوعاظ الناس، بدلا من دعوتهم إلى حب الله وحب الإنسان وحب الفضيلة، فى الإعلام وأجهزته فى الصحافة، وفى دنيا الثقافة.. فى كل مكان.

فطن النائب إلى أنه توغل فى موضوع الخوف، ومواطنه.. «خاف» أن يحاسب على قوله.. توقف فجأة قائلا:

- أقول لكم إيه، وأعيد إيه؟

• وعقبت زينة:

- نحن نشكرك كثيرا.. هذا كله وارد فى برنامجنا لقهر الخوف.

حاول فيصل أن يكون ذكيا مرة أخرى، قال للنائب:

- أنت مدرك لمنابع الخوف، وعليم بقوته التخريبية للإنسان فى مصر.. وأنت ترأس حكومة هذا البلد، لماذا لاتعاونا فى هزيمة الخوف، هذا سوف يسجل لك بسطور مضيئة فى تاريخ بلدنا.

- مرة أخرى، أصارحك، بأننى شخصيا خائف!

- هذا غير معقول، المنصب الضخم الذى تحتله، قد يكون خوفك من رصاص الإرهاب فحسب؟

- هذا خوف مستحدث، وسوف نقضى عليه بمعاونتكم، ومعاونة الشعب كله.

- ماذا يخيفك إذن؟

تردد النائب، ثم اندفع وكأنه أراد أن ينفى عن نفسه أنه أقل شجاعة من الشباب من حوله.. قال:

- سأصارحكم بأمر عجيب، أنا خايف من السلطة العليا.

- السلطة العليا.. كيف؟

- الخوف هنا هو خوف على المنصب.. المكانة العليا التى نحتلها، يرعبنا التخلى عنها!!

وعقب أمين:

- كأن الدولة كلها من قاعها إلى قمتها دولة مرعوبة؟

وأضاف مقدام:

- هناك فى القمة سلطة أعلى، لابد أنها الوحيدة التى لايتطرق إليها الخوف.. فهى التى تنفرد بحكم الناس.

أراد النائب أن يثبت لهذا الشباب أن شجاعته تبزهم جميعا، لكن رهبة فقد المنصب تعوقه عن الانطلاق.. اقترح أن يختلى بفيصل وزينة وأمين ومقدام، وقال لهم:

- سأبوح لكم بسر.. عدونى ألا تبوحوا لأى إنسان.. ولما وعدوه قال لهم:

- نحن جميعا خائفون.

وردد الحاضرون:

- خائفون ممن؟

- من قوة أجنبية، لاشك أنتم تعرفونها!

عـــربيـــة للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

أيام الخوف

